حجر رشيد

الكوني

رواية من أدب التشويق و الخيال

د. غفار محمد

حجر رشيد الكونيّ ..

الإهداء :

إلى كل من يؤمن أن هذه الرواية و أي حدث نقوم به ما هو إلا فكرة طارئة على دماغ كوني أكبر ..

حجر رشيد الكونيّ ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل تشابه مع الواقع في الأسماء و الأحداث و كثير من الأماكن هو محض صدفة ..

حجر رشيد الكونيّ ..

محتوى الكتاب :

- بذرة تحت التراب ..
- العقل الكونيّ ..
- عاصفة سيبرانية ..
- رحلة في الذاكرة ..
- على شفير الهاوية ..
- حجر رشيد الكوني ..
- سباق مع الزمن ..
- أرشيف الكون ..
- قاب قوسين أو أدنى ..
- كلمات الكون الأولى (مغارة علي بابا) ..

بذرة تحت التراب

الولايات المتحدة الأمريكية

واشنطن العاصمة ..

2049 م ..

كان المساء يهبط على مبنى **وكالة سانا للفيزياء الكونية** في واشنطن ككائن شفاف يمدّ أجنحته من الزجاج إلى الزجاج، ومن الضوء إلى العتمة. في الطابق السادس، داخل مكتبٍ تغمره خرائط النجوم ومجاهر الضوء المعتم، جلس البروفيسور **براين غري**، أحد آخر العقول التي لا تزال تُصدّق أن للكون روحًا تفكّر.

كان في الحادية والسبعين عمرًا تُخفيه قامته المستقيمة ونظرته التي ما تزال تشعّ بوميض الطفل المندهش أمام أول مجرة تُكتشف في عدسةٍ صغيرة. وجهه نحيل تتقاطع عليه خطوط كأنها تضاريس الزمن ذاته؛ جبين واسع يحتضن الفكرة كما يحتضن الأفق الغروب، وعينان رماديتان فيهما تلك اللمعة التي تجمع بين حنين الحكيم وقلق العارف. شعره الأبيض ينساب بلا ترتيب، كأنه صفحة من غيومٍ نُسيت فوق رأسه، ولحيته قصيرة تُخفي ابتسامة خجولة لا تظهر إلا حين يفاجئه سحر فكرة جديدة.

كان صوته منخفضًا، عميق النغمة، حين يتكلم يبدو كأنّ الزمن نفسه يُنصت. يرتدي بذلة رمادية مهترئة الأطراف،

ومعطفًا رمادياً طويلًا لا يفارقه حتى في قاعات المحاضرات؛ يقول طلابه إنه يشبه نيزكًا سقط من الفضاء ولم يتخلّص بعد من رماده.

على مكتبه، تنتشر أوراقٌ كثيرة مكتوبة بخطٍّ دقيق، خطوط متشابكة تشبه خرائط كونية أكثر مما تشبه معادلات. بينها صور من تلسكوبات متقدمة، وأخرى من أدمغة بشرية مصوّرة بالأشعة المغناطيسية، وقد كتب على هامش إحداها :

(الشبكة العصبية ليست سوى مرآةٍ صغيرة للشبكة الكونية ، ربما تفكّر النجوم كما تفكّر الخلايا، وربما نحن مجرّد فكرة في عقلٍ أعظم) ..

و على جدران مكتبه تتناثر صور لعلماء كانوا قدوته في شبابه العلمي .. نيوتن ، أينشتاين ، ماكسويل ، تسلا ، كيفين هوكينغ و آخرون .. يستمد من تجاربهم العلمية المثيرة و الحياتية القاسية صبراً ، شغفاً و عزيمة ..

براين يعيش مع زوجته **شانتال غولدمان** ، أستاذة الموسيقى في جامعة العاصمة ، في منزلٍ حجري قديم يطلّ على غابة من القيقب. شانتال فرنسية الأصل، ذات وجه مستدير وعينين عسليتين تلمعان كوترَي كمان، وقد عُرفت بحسّها الحالم وصبرها الأسطوري على فوضى زوجها الفكرية. كانت تقول دائمًا : *(براين لا يعيش في هذا العالم، بل في الهامش بين النوتة والمجرة)* ..

لهما ابنتان : **سوزي**، طبيبة أعصاب تعمل في مستشفى ماساتشوستس العام، **وكريستينا**، ابنة الإنترنت، صاحبة قناة علمية على يوتيوب تتحدث فيها عن الفيزياء بلغة الشعر والضحك. كان براين يضحك حين يسمع كريستينا تتحدث في مقاطعها : *(أبي يؤمن أن الكون يفكّر. وأنا أؤمن أن الكون يضحك علينا ونحن نحاول فهمه)* ..

و مع ذلك كان فخورًا بها؛ فقد رآها تحمل فكرته إلى جيلٍ جديد بطريقة أكثر حيوية مما يفعل هو في محاضراته الجامعية.

أما سوزي، فكانت أقرب إلى عقله. كانت تشاركه حوارات طويلة عن الدماغ، عن الإدراك، وعن الخلايا العصبية التي قد تكون مفاتيح للوعي الكوني. كان يقول لها مبتسمًا :

(يا سوزي، حين أنظر إلى صورة دماغك بالرنين المغناطيسي، أشعر كأنني أنظر إلى خريطة الكون نفسه)

فتجيبه :

(و أنا، أبي، حين أرى صورة المجرات، أشعر كأنني أنظر

إلى فكرتك وهي تتنفس) ..

قضى براين شبابه في مختبرات معهد ماكس بلانك ، حيث بدأ ولعه القديم بفكرة **الإسقاط العصبي على الكون** .. لم يكن يقصد الإسقاط النفسي بالمعنى الروحي، بل تلك الفرضية الجريئة التي تقول إن البنية العصبية للدماغ البشري ليست مجرد انعكاس تطوّري، بل نتيجة تشفير كوني، **كأن الكون درّب نفسه عبر مليارات السنين على إنتاج دماغٍ يفكّر به**.

كان يؤمن أن كل خلية عصبية في الإنسان هي نقطة مراسلة في شبكة أوسع تمتد إلى البنى الكونية الكبرى. وحين حاول أن يصوغ ذلك علميًا، سمّى مشروعه **التطابق العصبي الكوني** ، وهي فرضية جمع لها طلابًا وأساتذة، وأقام من أجلها مؤتمرات، وواجه بها السخرية والدهشة في آن.

ذات مساء، في قاعة المحاضرات، وقف أمام طلابه وقال بصوته الهادئ :

(الدماغ ليس آلةً تُدرك الكون، بل نافذةٌ يطلّ الكون منها على نفسه. كل ومضة فكرٍ إنساني هي نبضة في قلبٍ كونيٍّ لا نرى إلا جزءًا منه) ..

كانت القاعة صامتة إلا من صوت قلمه وهو يرسم على اللوح خريطة مجرة درب التبانة، ثم يرسم بجانبها صورة لدماغ بشري، متداخلة التشعبات، متشابكة الممرات، ويقول :

(هل ترون ؟ إنهما يكتبان اللغة نفسها، بلغة الخيوط، بلغة الضوء) ..

في اجتماعات الوكالة، كان براين يدخل متأخرًا، يحمل معه مجلده الضخم المليء بالصور والملاحظات. زملاؤه في سانا ينظرون إليه بنصف إعجاب ونصف شكّ. أحدهم، الدكتور **ألان كريمر**، كان يتهكم قائلًا :

(براين، أنت تريد أن تجعل من الكون عقلًا ومن الفيزياء شعرًا!) ..

فيرد براين بابتسامة واثقة :

(ولِمَ لا ؟ كل نظرية عظيمة تبدأ شعراً، ثم تتعلّم النطق بالأرقام) ..

كانت مناقشاته معهم لا تنتهي : عن طبيعة الوعي، عن **المادة المظلمة** التي كان يعتقد أنها ليست مادة أصلاً، بل مساحة صامتة في تفكير الكون .. وكان يكرر دائماً أن

الطاقة المظلمة ليست سوى توق داخلي للكون نحو الاتساع، كأنها فكرة تنمو داخل عقلٍ يدرب نفسه على التذكر هروباً من زهايمر كوني محتمل ..

أحيانًا، كان يغيب عن الاجتماعات أيّامًا ليجلس في مكتبه وحيدًا، يتأمل صور التلسكوب الفضائي الجديد الذي صمّم فريقه بعض برامجه التحليلية. كان يحدّق في النقاط البعيدة من المجرات ويقول همسًا :

(تلك ليست نجومًا، بل إشارات ... إنّ الكون يرسل أفكاره ببطءٍ إلينا، و علينا نحن أن نحاول ترجمتها) ..

في منزله، الليل يبدأ حين تعزف شانتال مقطوعة لشوبان على البيانو.

و كان براين يجلس إلى جوارها، يستمع، ثم يغمض عينيه كأنه يرى الموسيقى تتحوّل إلى خيوط من ضوءٍ متداخل، كشبكة دماغية في الفضاء.

قالت له مرة :

(إنك تسمع الموسيقى كما لو كنت تراها) ..

فأجابها مبتسمًا :

(ربما لأن الكون حين خُلِق، لم يكن ضوءًا فقط، بل نغمة)

كانت تلك اللحظات بينهما تُعيده إلى إنسانيته، تُخرجه من متاهة المعادلات إلى سكينةٍ تشبه صلاةً بلا كلمات. كانت شانتال تفهم جنونه كما يفهم المايسترو لحنًا لم يكتمل بعد.

ومع مرور السنين، بدأ براين يشعر أن مشروعه لم يعد علمًا فقط، بل رسالة. صار يرى في وجوه طلابه بريقًا غريبًا حين يشرح لهم كيف أن العقل البشري ليس متفرجًا على الكون بل جزءاً من تشغيله.

قال في إحدى محاضراته الأخيرة :

(لو كان الكون عقلًا، فإن وعينا نحن ليس استثناءً بل تماهٍ .. كل لحظة وعي هي لحظة مشاركة في تفكيره)

ثم سكت قليلًا، ونظر إلى وجوههم اللامعة وقال :

(إننا لا نفكر في الكون... إننا نفكّر بالكون و الكون يفكر من خلالنا) ..

في تلك الليلة، عاد إلى مكتبه، وكتب في مذكّرته الأخيرة قبل منتصف الليل :

(ربما كان وعيي أنا مجرّد ومضة صغيرة في ذاكرة مجرّة بعيدة تتذكّر نفسها من خلالي .. يا له من شرف أن أكون فكرة في عقلٍ لا نهائي ، و لعل محاضرتي القادمة فرصة ذهبية لأفصل في ذلك أكثر) ..

هكذا كان البروفيسور براين غري ، عالمًا وعاشقًا، عقلًا من نورٍ يسعى خلف المعنى بين مجرتين، بين نغمتين، بين نبضتين في دماغ الكون العظيم.

كان يؤمن أن النهاية الحقيقية للعلم ليست في اكتشاف القوانين، بل في اكتشاف الذات التي تكتشف. وفي أعماقه، ظلّ يشعر أن اللحظة التي سيفهم فيها الكون ستشبه لحظة ينظر فيها إلى مرآته فيرى الله يبتسم له .. إن أفكاره الآن مجرد بذرة تحت التراب فهل ستنتش منها شجرة عملاقة من الحقائق الكونية المذهلة ؟!

العقل الكوني

محاضرة البروفيسور براين ..

بعد أسبوع ..

كانت القاعة في تلك الأمسية تشبه كوكبًا آخر، ضوءها خافت كأن النجوم انحنت لتتفرّق فوق الرؤوس، والجدران الملساء تنعكس عليها الظلال كأنها صدى لعوالم أخرى تتنفس في صمت. كان الهواء مثقلاً بتلك الرهبة التي تسبق الكشف العظيم، ووقع الخطوات على أرضية الرخام الصقيل بدا أشبه بنبضٍ جماعيّ يتردّد في قلوب الحاضرين.

في المدرّج العريض جلست وجوه من شتّى أرجاء الأرض : علماء فيزياء فلكية يحملون في أعينهم بريق المعادلات، فلاسفة بشعورهم الرمادية وعقولهم المشتعلة بأسئلة الوجود، شعراء جاءوا بدافعٍ غامض لا يدركونه، وطلاب جامعة التقطت أرواحهم تلك الدعوة كأنها نداء من المجهول. لم يكن الحضور عادياً، بل بدا أن المكان نفسه قد استعدّ منذ دهور لهذه اللحظة؛ كلّ مقعد، وكلّ خيط ضوء، وكلّ نفسٍ متردّد في صدر القاعة كان في موقعه المنتظر.

على المنصة المركزية انتصب شعار الجامعة محفوراً على لوح من الكريستال : (**الحكمة تلامس النجوم**). خلفه، شاشة هائلة مظلمة تنتظر أن يضيئها فكر. وبينما كانت عقارب الساعة تقترب من العاشرة، ساد صمت مهيب، كأن الزمن نفسه حبس أنفاسه احتراماً لذلك الاسم الذي أصبح في الوعي الإنساني مرادفاً لاكتشاف الأسرار الكونية :

البروفيسور براين غري.

فتح الباب الجانبي بخفّة، فدخل هو. لم يكن في مشيته استعراض ولا تكلّف، بل ذلك الهدوء الذي يشبه تياراً عميقاً يجري تحت سطح السكون. كان شعره الفضي يلمع تحت الضوء كوميض السدم البعيدة، ووجهه يحمل تلك الملامح التي صاغتها الأعوام بين الحيرة والدهشة والنور. ارتدى بذلة رمادية داكنة، لا توحي بالسلطة بقدر ما توحي بالسكينة، وفي يده أوراق قليلة كأنها ليست ملاحظات، بل مفاتيح لعوالم ستفتح بعد لحظات.

حين خطا نحو المنصة، بدا أن كلّ الأعين انجذبت إليه كما تنجذب المذنّبات إلى مدار الشمس. توقّف في منتصف الطريق، التفت نحو المدرج، وابتسم بتلك الابتسامة الهادئة التي تجمع بين العارف والمتسائل في آنٍ واحد. صعد الدرجات الثلاث ببطء، وفي كل خطوة كان الصمت يتكثّف أكثر، حتى صار أقرب إلى سكونٍ كونيّ.

وقف خلف المنصّة، ثم لم يقترب من الميكروفون فوراً. ألقى نظرة على الجمهور، نظرة بدت وكأنها تخترق القلوب واحداً واحداً، ليتأكد أن الجميع حاضر ليس فقط بأجسادهم، بل بعقولهم وأرواحهم. وضع أوراقه برفق على الخشب اللامع، ثم شبك يديه أمامه، وتنفس بعمقٍ طويل، كأنما يستدعي من الذاكرة صدى آلاف السنين التي أمضاها الكون في البحث عن صوته.

قال بهدوءٍ يشبه النسيم :

= مساءُ الخير ... أو ربما يجب أن أقول، مساءُ الوعي.

ثم سكت قليلاً، فابتسم بعض الحضور، ولم يكن يعلم أحد إن كان يمزح أم يختبر انتباههم. تابع بصوتٍ رخيمٍ دافئ :

= قبل أن أبدأ، دعوني لا أشكركم على الحضور، بل أشكر هذا الصمت الذي خلقتموه. فالصمت، كما تعلّمت من النجوم، ليس غياباً للكلام، بل هو اللغة التي يتحدث بها الوجود حين يقرر أن يقول الحقيقة.

اقترب خطوة واحدة من المنصة، وكأنه يريد كسر المسافة بينه وبين العقول أمامه، ثم قال :

= أنا لست هنا اليوم لألقي محاضرة ... بل لأشارككم ارتجافتي الأخيرة أمام المجهول. ما سأقوله لم يعد علماً فقط، ولا فلسفة فقط، بل شيء وُلد بينهما كما يولد الضوء من احتراق الظلال.

ارتفعت الأنفاس في القاعة، وأحسّ الجميع أن شيئاً جللاً على وشك أن يُقال. على الشاشة خلفه ظهر شعار صغير :

(حجر النور - من شفرة الكون إلى الوعي الإنساني)

كانت تلك الكلمات وحدها كفيلة بإشعال الدهشة .. في حين تابع البروفيسور كلامه :

= تخيلوا معي لوهلة .... ماذا لو كان الكون بكل وسعه، بكل

مجراته، بكل ظلاله من المادة والطاقة، ليس مجرد فضاء مادي شاسع ، بل جهاز تفكير هائل ، دماغ عملاق يدرك ذاته من خلال مكوناته ؟

هذه الفكرة ليست مجرّد خيال أدبي أو علمي ، بل تمتد جذورها إلى **التقاليد الفلسفية القديمة** : (الكون الأعظم و الكون الأصغر **microcosm - macrocosm** ، حيث الإنسان **صورة للكُلّ**) ، وإلى **التأملات المعاصرة** في علم الكون، الفيزياء، ونظريات الوعي.

و في فلك هذه الفرضية تحوم كوكبة من الأسئلة المثيرة : كيف اقتُرحت علميًا ؟ كيف تدعمها البراهين والتشابهات ؟ ما هو معناها إن صحت ؟ وأخيرًا، كيف ننظر إلى حياتنا إذا كانت الأفكار التي تُصدرها المجرات تتفاعل مع أفكارنا نحن البشر في نسيج العقل الكوني الأكبر ؟ و اليوم أنا موجود كي نحاول سوياً الإجابة على كل هذه الأسئلة ..

صمت قليلاً ثم أردف :

= لنبدأ الأجوبة من تجربة علمية مذهلة تفجّر العقل حرفياً ، حيث قام كل من **فرانكو فازا** عالم الفيزياء الفلكية في جامعة بولونيا الإيطالية ، و **ألبرتو فيليتي** جراح الأعصاب في جامعة فيرونا الإيطالية بإجراء مقارنة بين الشبكة الكونية و الشبكة العصبية في الدماغ ، لتظهر لهما أوجه تشابه مفاجئة كثيرة بينهما ..

❁ الدماغ البشري يعمل بفضل شبكته العصبية الواسعة التي تحتوي على ما يقارب **100** مليار خلية عصبية، كذلك الأمر يتكون الكون المرئي من شبكة كونية من **100** مليار مجرة على الأقل ..

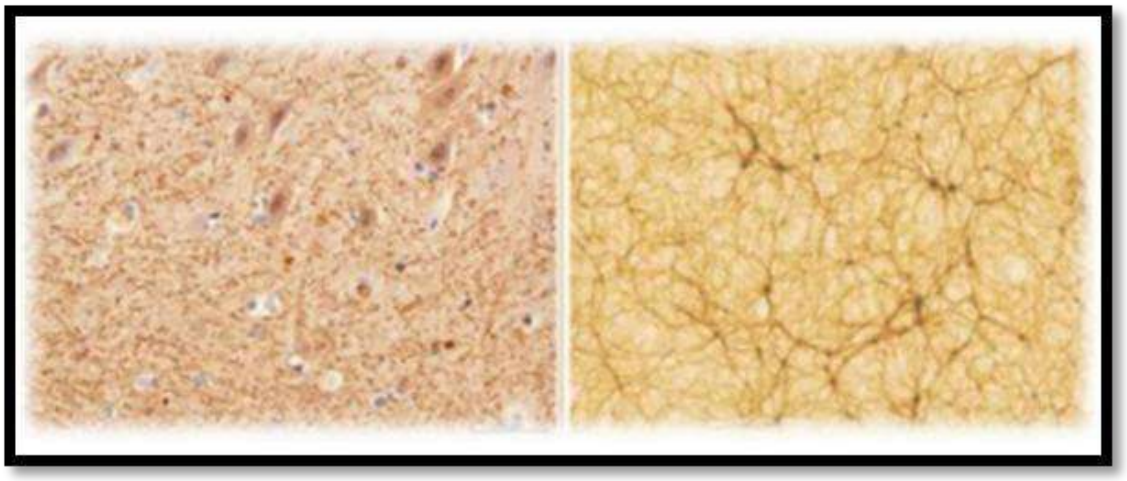

❁ داخل كال النظامين تتكون **30** % فقط من كتلة الشبكتين من مجرات خلايا عصبية، في حين يتكون **70** % من توزيع الكتلة من مكونات تلعب على ما يبدو دوراً سلبياً (الماء في الدماغ والمادة المظلمة في الكون المرئي)..

❁ ليس ذلك فحسب بل إنّ تراتب المجرات و الخلايا العصبية هو نفسه في الشبكتين ، عبارة عن خيوط طويلة مع عقد بين الخيوط ..

❁ أخيراً تبين أن الكثافة الطيفية متشابهة بين الشبكتين ..

فهل نحن حقاً مجرد أفكار طارئة تجول في خيال هذا الدماغ الكوني العملاق ؟!

تنقل ببصره بين الحضور المندهش ، ابتسم و تابع :

= أكثر من ذلك، هناك اقتراحات أكثر جرأة تفترض أن الكون نفسه قد يعمل مثل شبكة عصبية عملاقة : فكما أن الدماغ يتعلم، ربما الكون أيضًا يتعلَّم أو يتطور، في مفهوم يُعرف **بالكون العصبي** أو **الكون كشبكة تعلم ذاتي** . مثلاً، يذكر البعض أن قوانين الفيزياء قد لا تكون ثابتة بالكامل بل تنشأ تدريجيًا عبر تطور النظام الكوني ، فتتغير القوانين مع نضج البنية الكونية تماماً كما يحدث للإنسان و دماغه .

و ليس التشابه الهيكلي وحده ما يُثير التأمل، بل أيضًا في طريقة تعامل كل من الدماغ والكون مع **مفهوم المكان و الزمان**. بعض الباحثين يقترحون أن الدماغ - بسبب سرعة انتشار النبضات العصبية المحدودة، وبسبب ترابط العقد في شبكته العصبية - قد يُنظر إليه من منظور يشبه **الفضاء - الزمن** (**spacetime**) الداخلي، حيث **التزامن** ليس مطلقًا بين العقد المختلفة . هذه النظرية تلقي ضوءًا على فكرة أن الأجزاء المختلفة من الكون أو الدماغ قد تعيش أوقاتًا نسبية داخلها حيث يتداخل الماضي و الحاضر و المستقبل في نسيج واحد ..

و إذا كان في الكون أيضًا نسق من **الزمكان المنحني** (كما

في النظرية النسبية) ، فهل من غرابة أن يكون هناك نسق زمني داخلي في شبكة الدماغ العصبية إذا تعاملنا معها كموضوع معرفي داخلي؟ أي : **ربما الزمن بالنسبة للدماغ ليس مجرد مفهوم خارجي ، بل يُعاش في داخله كجزء لا يتجزأ منه بطرق لا ندركها بعد.**

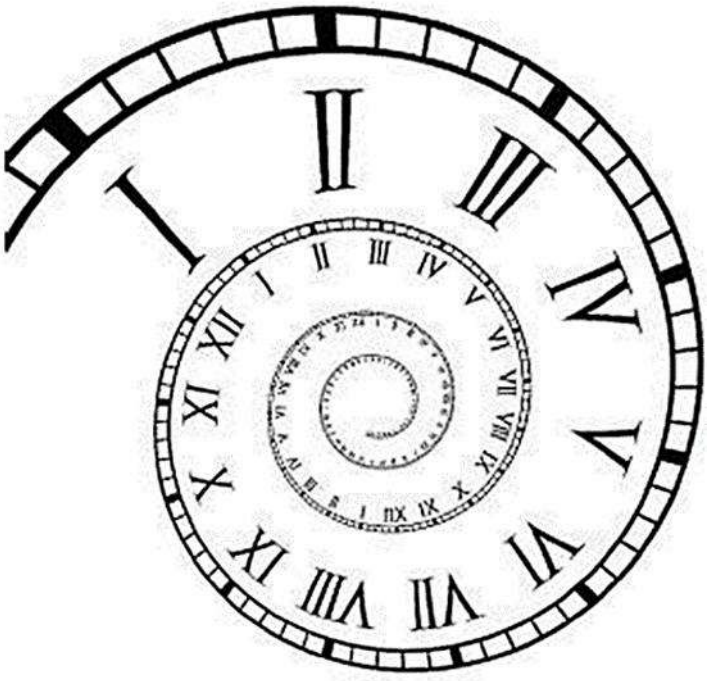

أعلم أن هذا الكلام معقد قليلاً كونه بحاجة لشرح علمي يطول ، لكن الخلاصة أن العلماء يقترحون أن ما ينطبق على الكون من نظريات و قوانين بإمكانه أن ينطبق على الدماغ البشري أيضاً بطريقة أو بأخرى ، و هذا ما يهمنا بالخلاصة ..

صمت مجدداً و ارتشف من كأس الماء أمامه ثم تابع :

= لنسرح قليلاً في عوالم الحاسوب و الرقميات، فمن منظور المعلوماتية، يطرح البعض أحيانًا أن الكون ليس مختلفًا في البنية عن الحاسوب أو الجهاز الحسابي الضخم، وأن تطوره

هو معالجة معلومات ، بالتالي العقل الكوني يمكن أن يُتصوَّر كمُعالِج معلومات هائل يعبر عن ذاته عبر الكيانات التي فيه.
بعض الفلاسفة والفيزيائيين يذهبون إلى أن العالم هو **كمبيوتر كوني** أو **العالم هو محاكاة** أو **العقل الكوني هو برنامج ميتافيزيقي** .. في هذا السياق، تشبيه الكون بالدماغ يصبح ليس مجرَّد استعارة، بل ربما تمثيلاً حقيقيًا لمنطق المعلومات الكامن.

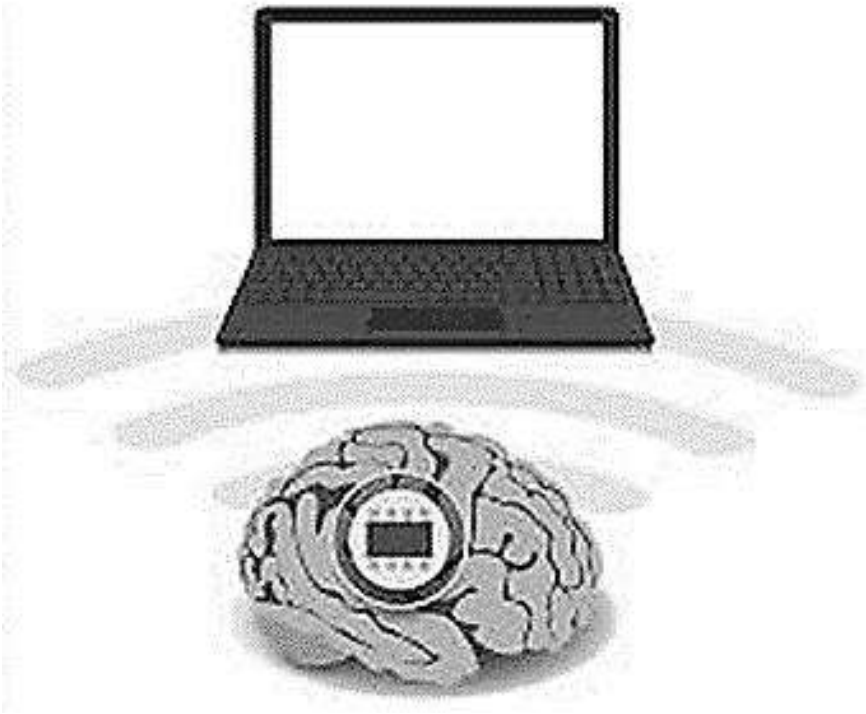

و لكي لا تبق الفكرة عند مستوى التشبيه، يجدر النظر إلى النماذج والتجارب المقترحة التي تحاول إرساء جسور بين الدماغ و الكون.

لدينا أولاً **نموذج تضامن الكمّ والوعي Orch-OR** ، حيث قدم العالمان **رونالد بنروز** و **ستيوارت هاميروف** هذه النظرية والتي تقترح أن الوعي ينشأ من عمليات كمومية دقيقة تحدث في **الأنابيب الدقيقة** داخل خلايا الدماغ، وأن

انهيار **الحالة الكمومية** يُشكّل اللحظة الواعية . بعض النسخ المتطرفة من هذه النظرية تربط بين هذه العمليات الكمية وبين بنى الكون الكمي، بحيث أن الوعي البشري وما يحدث في الدماغ قد يكون جزءًا صغيرًا في نشاط كمومي كوني أكبر.

ثم تأتي نظرية **الكون الكمومي والوعي الناشئ** ، ففي أبحاث أخرى، هناك من اقترح أنه في **فترة التضخم الكوني المبكر**، كان الكون في **حالة تراكب كمومي** هائلة، وعند انهيار هذا التراكب نشأ **الزمن والمادة** .. في هذا النموذج، العلاقة بين الكون والوعي ليست مجرد تشابه بنيوي، بل أن البنى الكمية في بدايات الكون قد تشابكت مع بناء الوعي لاحقاً سواء على مستوى الكون نفسه أو الإنسان و دماغه ..

كما أن بعض الأعمال في مجال المعلومات الكونية ترى أن البِنى الأساسية للعالم هي بُنى معلوماتية، وأن الوعي (الذي هو أيضاً شكل من أشكال المعلومات المدمجة) يمكن أن يُعدّ امتدادًا داخليًّا لذلك **الهيكل الكوني المعلوماتي** .

أعود و أكرر ، هذه مصطلحات علمية معقدة لا سيما عندما نصل إلى بوابة عالم الكمومية .. لكن ليس بالضرورة أن نفهم التفاصيل بل أن نؤكد مجدداً أن هنالك تشابه عميق بين الدماغ و الكون سواءٌ من حيث البنية أو آلية العمل حتى على مستوى الجزيئات الدقيقة و عالم الكم الساحر الغريب ..

ابتسم للحضور مجدداً و قال :

= و لكي نقول ما لنا و ما علينا ، لا بد من الإشارة إلى أن كل النظريات السابقة لاقت اعتراضات حادة و وجهت إليها عدة انتقادات ، مثلاً أنّ التشابه البنيوي لا يثبت أصلية العلاقة أو أن الكون فعلاً يفكر .. فكثير من الأنظمة المعقدة تُظهر أنماطًا متكررة : الشجرة، الشعاب المرجانية، الأوردة، الشّبكات الاجتماعية ، كلها تُظهر أنماط شبكية، دون أن يُفترض أن كل منها عقل ..

و أيضاً عدم وجود آلية تجريبية واضحة توضح كيف يُترجَم النشاط الكوني إلى فكرة أو وعي. فكيف يمكن أن يكون إشعاع من مجرة ما فكرة في العقل الكوني؟

و هناك أيضاً **فرضية دماغ بولتزمان** التي تفترض أنه في الكون الواسع المتوازن، من الممكن أن يتكوّن عقل مفرد (دماغ بولتزمان) من **تقلبات عشوائية**، يستمر لثوانٍ فقط ثم يختفي ، أي أن الكون ليس مجرد عقل ببداية و نهاية ثابتة

و أخيراً، كثير من الفرضيات مثل الوعي الكوني تقع ضمن نطاق النماذج الفلسفية أو الميتافيزيقية أكثر من أنها نماذج فيزيائية مختَبرة.

ساد الصمت المكثف على المدرج المعجب بحيادية البروفيسور و سياسته التي تميل لتدوير الزوايا و عرض كل وجهات النظر ، في حين استطرد براين :

= لنتجاوز الآن التشبيهات والاعتراضات إلى **الاحتماليات الأدبية الفلسفية** : ماذا لو أن كل إشعاع صادر عن مجرة هو فكرة في العقل الكوني؟ وأن حياتنا، بأحداثها وتواريخها،

ليست سوى تناغم بين أفكار الفرد والعقل الكوني؟

تخيل أن المجرات تُصدر أشعّة - موجات كهرومغناطيسية، إشعاعات، إشارات كمومية - وكل منها يُرمز إلى فكرة كونية. تلك الأفكار يمكن أن تكون مفاهيم أساسية مثل **فكرة المدى، فكرة التكامل، فكرة الزمن، فكرة النشوء،** قد تكون ذات صدى في وعي الكوني. وعندما تهبط هذه الأفكار إلى وعي الإنسان، تتخذ شكل أحداث : **ولادة، صراع، عبور، اكتشاف.**

بمعنى أدبي : كل نجمة تولد ليست مجرد نجم، بل فكرة أُطلقت؛ وكل تجمع مجري ليس مجرد تجمع، بل فكرة تجري في العقل الكوني؛ وكل ثقب أسود ليس مجرد نِقطة كونية، بل فكرة مركزية تتكّم بجاذبية الفكر الكوني.

هنا، الحياة البشرية تُصبح لعبة تفاعلية : نحن نستقبل الأفكار الكونية، نُعالجها في دماغنا، نردُّ عليها بأفكارنا وأفعالنا، فترتدّ إلى العقل الكوني، فتتبدل البنى الكونية حسب مدى

استجابتنا .. هكذا نتخيّل الكون ليس فقط كمُرسل أفكار، بل كمشارِك في صناعة التاريخ البشري.

صمت مجدداً و رفع يده بطريقة مسرحية توحي بأن المحاضرة بدأت تزف إلى نهايتها و قال :

= لو أن الإنسان ليس منفصلًا عن العقل الكوني، بل هو جزء من عملية فكرية مشتركة، فإن حرية الإنسان ليست انفصالًا مطلقًا، بل حرية داخل شبكة فكرية. نحن فكر الكون ، أي أن أفكارنا ليست ملكًا خاصًا فحسب، بل روابط في نظام أوسع، وعلى الإنسان أن يتحمّل مسؤولية أفكاره لأنها تمس للكل.

حين تُولد فكرة في مجرة بعيدة، قد تُحدث ترددًا في وعي الإنسان وقد يكون ذلك التردد نقطة تحول : **اكتشاف، تأمل، إبداع أو كارثة**. بمعنى رمزي، الكون يفكر في نفسه من خلالنا.

إذا كانت الحياة مجرى لتفاعل أفكار بين الإنسان والعقل الكوني، فالحياة تصبح مراجعة دائمة، مراجعة أفكارنا، مراجعة أفكار الكون، تعديل وتكامل. كل لحظة من التأمل أو الإبداع قد تكون إعادة ترتيب لفكر كوني على مستوى صغير كأن الكون يتقمص باستمرار من خلالنا.

ربما يكون معنى الموت هنا تحولًا من الحالة الماديّة إلى حالة فكرية : تتحول الأفكار التي كانت في علاقتنا المكانية

إلى أفكار تُرسَل إلى باطن الكليّة، وتُعاد صياغتها في دورات جديدة من الكون.

في النهاية إن تشبيه الكون بدماغ عملاق ليس اقتراحًا بسيطًا يُردّ ببرهان واحد أو رفض واحد. إنه نزوع فكري يجمع بين العلم والفلسفة، يستثمر تشابُه الأنماط، ويُطلق الخيال نحو احتمالات جديدة.

و إذا قبلنا مؤقتًا بهذا التصوّر، فسننظر إلى حياتنا باعتبارها مسرح أفكار و ليس مجرد مسرح مادي. سنُعيد تقييم علاقتنا بالكون : هل نحن فقط مستهلكون في عالم مادي ضخم ؟ أم **نحن المرايا التي يرى فيها العقل الكوني صورته، يفكّر فيها عبرنا، يُطوّر فيها ذاته ؟**

ربما لا نملك اليوم إثباتًا قطعيًا، لكن التشابُه البنيوي، المقاربات المعلوماتية، الطروحات الفلسفية كلها تشير إلى أن السؤال جدير بالتأمّل. وقد يكون الطريق إلى المعرفة ليس

مجرد إثبات أو نفي ، بل صيرورة ، رحلة فكرية يشارك فيها الإنسان والكون معًا .. فهل ستتحقق هذه النبوءة و نتمكن من إثباتها بالأدلة الدامغة فنرى الكون على حقيقته المغيبة كدماغ عملاق يفكر و نحن و أحداثنا على كوكب الأرض لسنا إلا ترجمة حرفية لهذه الأفكار ؟! أتمنى ذلك من كل قلبي و عقلي و روحي ..

هنا نصل إلى نهاية هذه المحاضرة التي حاولت اختصارها قدر الإمكان تجنباً للملل فأنا أعلم أن العقل البشري يميل للشرود و التشتت بعد زمن محدد و كمية معلومات معينة ..

أشكركم مجدداً على الحضور الكريم و الإصغاء الجميل و أتمنى لكم يوماً هادئاً و سعيداً مليئاً بالإنجازات و الأفكار الخلاقة ..

ترجل عن المنصة بهدوء في حين ساد صمت ثقيل على المدرج و كأن الجميع غارق في التفكير بما سمعه عن العقل الكوني الأكبر و أفكاره التي نجسدها نحن بأفعالنا ..

عاصفة

سيبرانية

الولايات المتحدة الأمريكية

آب - 2049 م ..

كان اليوم الخامس من شهر أغسطس، والسماء فوق المحيط تضجّ بوميضٍ ذهبيّ غريب، كأنّها تتهيّأ لحدثٍ يتجاوز اللغة.

في الصباح، سجّل مرصد وكالة سانا عاصفةً شمسية غير مسبوقة منذ قرن، تيارًا من الجسيمات المشحونة انطلق من سطح الشمس كصرخة ضوء، مخترقًا الفضاء نحو الأرض بسرعات مجنونة ..

في التوقيت نفسه تقريبًا، كانت الولايات المتحدة تستيقظ على كابوسٍ من نوعٍ آخر ، كابوسٍ لا يُرى، ولا يُسمع، لكنه يُشلّ الأنظمة ويُخرس الشاشات.

انطفأت شاشات وزارة الدفاع الأمريكية في اللحظة التي انفجرت فيها أول موجة من العاصفة الشمسية في الغلاف المغناطيسي للأرض.

في الدقيقة نفسها، توقفت أنظمة الدفع الإلكتروني في البنوك الكبرى، اختفت البيانات من خوادم شركات التكنولوجيا، وتعطّلت حسابات ملايين المستخدمين على فيسبوك و إكس ، وظهرت على بعض الشاشات السوداء عبارة واحدة باللون الأحمر :

(**وقت التغيير قد حان**)

في مكتب وكالة سانا ، وقف البروفيسور براين غري أمام النافذة الزجاجية العالية، يتابع بقلقٍ وانبهارٍ معًا كيف تتبدل الألوان في السماء. كان ضوء العاصفة يغمر المدينة بوميضٍ يشبه الشفق القطبي، لكن مائل إلى الذهبي الناريّ، كأنّ الشمس قررت أن تمدّ يدها لتلمس الأرض.

دخل عليه صديقه، الدكتور **إليوت ماكفيرسون**، خبير الأمن الرقمي في الوكالة، وجهه متوتر، هاتفه المحمول بلا إشارة.

قال وهو يلهث :

= براين، الأنظمة تنهار في كل مكان، الدفاع، البنوك، حتى وكالة الفضاء فقدت الاتصال ببعض الأقمار الصناعية. يظنّون أنها هجمات سيبرانية روسية أو صينية.

ابتسم براين ببطء، وكأنه يسمع لحنًا مألوفًا وسط الفوضى.

= وهل تظن يا إليوت أن ذاك التزامن محض مصادفة ؟ أن العاصفة الشمسية و الاختراق حدثا في اللحظة ذاتها بلا

معنى ؟

أجابه إليوت بحدة :

= لا وقت للفلسفة الكونية الآن يا صديقي ، هذه حرب إلكترونية بكل المقاييس و تهدد وجودنا !

جلس براين بهدوء على مقعده، أدار شاشة الرصد أمامه، فظهرت خطوط متقطعة تمثل نشاط الجسيمات الشمسية، تتناغم بشكلٍ غريب مع موجات الهجمات الإلكترونية المسجلة في قاعدة بيانات الأمن القومي.

قال بصوتٍ منخفض كمن يقرأ نبوءة :

= انظر... إنها ليست بيانات مختلفة، بل موجتان من المنحنى نفسه. ما تفعله الشمس فيزيائيًا يحدث رقميًا هنا. كأن الطاقة التي أطلقتها تحوّلت إلى أفكار رقمية... كأن الكون يكتب بلغتين في اللحظة نفسها : **لغة الضوء، ولغة الشيفرة**.

****

في البنتاغون، كان الجنرال **مايك دونوفان**، رئيس هيئة الأركان، يعقد اجتماعًا عاجلًا في غرفة مظلمة تحيط بها شاشات الاحتياط.

خلفه جلس وزير الدفاع **جون مكارثي**، وجهه صارم، يرفع سماعة الهاتف كل دقيقة ليتحدث مع البيت الأبيض.

على الشاشات، كانت تقارير تصل من كل الولايات : أنظمة

الإمداد الكهربائي تتعرض لهجمات، البورصة متوقفة، أقمار الاتصالات تُرسل بيانات مشوّشة.

قال أحد المستشارين التقنيين :

= الهجوم منسّق على مستوى غير مسبوق، بعض التواقيع تشير إلى أدوات روسية، أخرى صينية، وهناك بروتوكولات لم نتعرّف عليها بعد.

ضرب الجنرال دونوفان الطاولة بيده :

= لا يهمّ من هم، نريد الردّ فورًا! نريد إيقاف كل هذا العبث.

لكن وزير الدفاع قال ببرودٍ :

= الردّ على مَن؟ لا يمكننا أن نحارب ظلاً إلكترونيًا . كل ما نعرفه أن التوقيت تزامن مع العاصفة الشمسية الكبرى.

عندها تدخلت الدكتورة **ليزا فرانسيس**، مستشارة العلوم في البنتاغون، وقالت :

= سيدي الوزير، هناك في وكالة سانا فيزيائي كوني يدعى براين غري ، يحاول الربط بين العاصفة والهجمات.
نظرياته غريبة، لكنه من أعمق العقول التي لدينا. ربما علينا أن نستمع إليه.

ضحك الجنرال ساخرًا :

= فيلسوف آخر يريد أن يفسر الحرب بلغة النجوم ؟ نحن نحتاج إلى خبراء أمن، لا شعراء كونيين !

لكن الوزير أشار بهدوء :

= اتصلوا به على الفور. في زمن الفوضى، حتى الشعر قد يحمل تفسيرًا و أملاً ..

في تلك الليلة، نُقل براين إلى غرفة العمليات المركزية في واشنطن بطائرة صغيرة.

حين دخل القاعة، كانت وجوه الضباط متجهّمة، شاشاتٌ لا تعمل، أصوات الإنذارات تتداخل مع أصوات المولدات.

وقف أمام اللوح الرقمي، أخرج من حقيبته خرائط التزامن

بين نشاط العاصفة ومواقع الهجمات، وقال بصوتٍ ثابت :

= ما يحدث ليس هجومًا من دولة على دولة فقط... بل ظاهرة فكرية كونية. العاصفة الشمسية ليست مجرد طاقة؛ إنها فكرة متجسدة في لغة الطبيعة. والأنظمة الرقمية، كونها امتدادًا لعقولنا، التقطت هذه الفكرة وترجمتها على شكل شيفرات هجومية.

صاح أحد الضباط :

= أهذا سحر أم جنون ؟ أتقصد أن الشمس تفكّر ؟

فأجاب براين بابتسامة هادئة :

= بل الكون يفكّر، والشمس ليست إلا نبضة في دماغه.

تقدمت ليزا فرانسيس وقالت بصوتٍ متردد :

= أستاذ غري ، هل تقول إن الهجمات حدثت بلا فاعل بشري؟

ردّ بعد صمتٍ قصير:

= لا أقول ذلك، لكني أعتقد أن من نفّذها لم يكن يعلم أنه ينفّذ إرادةً أعظم، تيارًا فكريًا مرّ عبره كما تمرّ الكهرباء في الأسلاك. ربما الروس، الصينيون، أو حتى شركات التكنولوجيا نفسها، جميعهم أدوات في معادلةٍ فكرية أكبر.

في البيت الأبيض، كانت الرئيس مورغان يجلس مع مستشاريه في غرفة الأزمة، وعلى الشاشة الكبيرة تقارير

عاجلة :

- انهيار **45** % من الأنظمة البنكية خلال ساعة.
- تعطّل الأقمار الصناعية المدنية.
- تسريب بيانات من وزارة الدفاع.

قال الرئيس بقلقٍ ظاهر :

= إذا كان هذا عملًا بشريًا، فهو إعلان حرب. وإذا لم يكن... فهذه كارثة .. نحن أمام عدو لا نفهمه.

رد وزير الدفاع :

= هناك عالم كوني يقول إن ما يحدث قد يكون استجابة فكرية من الكون نفسه.

رفع الرئيس حاجبيه :

= هل فقدنا عقولنا جميعًا ؟ الكون يهاجمنا ؟ لماذا ؟!

تدخّل أحد المستشارين قائلاً:

= سيدي، لو كان البروفيسورغري على حقّ، فربما يمكننا توقّع الموجة القادمة. فهو يتحدث عن نمطٍ فكري وليس عن صدفة.

بعد دقائق من الصمت و التفكير أصدر الرئيس أوامره :

= حسناً، دَعوه يعمل معكم، لكن أريد نتائج ملموسة على أرض الواقع لا استعارات لا تقدم و لا تؤخر ..

****

عاد براين إلى مختبره في الوكالة، ومعه ليزا فرانسيس، وإليوت، وعدد من العلماء الشباب. كانوا يراقبون في الوقت نفسه إشارات العاصفة الشمسية وتدفق الهجمات الإلكترونية، فاكتشفوا أن كلا الموجتين تتصاعدان ثم تهدآن وفق نمطٍ متشابه كل **1.618** دقيقة و التي تعرف بالنسبة الإلهية الذهبية التي يقال أنها تحكم الكون و الوجود ..

قال براين وهو يرسم المنحنى :

= هذا النمط يشبه تمامًا **موجات الدماغ أثناء التفكير العميق**. هذه ليست فوضى، بل عملية إدراك. الكون يفكر فينا، ونحن نردّ عليه دون أن نعلم.

أجابته ليزا بشيءٍ من اليأس و التهكم :

= جميل، ولكن من سيتحدث عن ذلك إلى الكون؟

ابتسم براين :

= نحن، عبر الضوء .. فالضوء هو اللغة السائدة في الكون

في تلك الأثناء، كانت أجهزة الاستخبارات تعلن أن مصدر الهجمات أتى من نطاقات في سيبيريا وشمال الصين.

خرجت المتحدثة باسم البيت الأبيض، **كارولين بيرغمان**، في مؤتمرٍ عاجل :

= الولايات المتحدة تعتبر هذه الهجمات عملاً عدائيًا منسقًا، وستردّ بالشكل المناسب.

اشتعلت وسائل الإعلام، نفت روسيا و الصين بشكل قاطع أي علاقة لهما بما حدث ، وتبادل العالم التهديدات، بينما كان براين يتابع منحنى الطاقة يتراجع ببطء.

قال لإليوت :

= الغريب أن العاصفة تهدأ ... والهجمات أيضًا تتراجع معها.

سكت قليلًا، ثم أضاف بصوتٍ متهدج :

= يا إلهي، كأن العقل الكوني انتهى من التفكير... مؤقتًا ، فهل ما جرى فكرة طارئة عليه أم واحدة ضمن مخطط مكتمل من الأفكار لغاية بعيدة ؟!.

بعد ثلاثة أيام، اجتمع مجلس الأمن القومي الأمريكي. قدم براين عرضًا أخيرًا قال فيه :

= ما حدث لم يكن صدفة ولا مؤامرة خالصة. نحن نعيش في عقلٍ يفكّر، وكل حدث ضخم في الكون قد يجد ترجمته في وعينا الجمعي أو في أنظمتنا التقنية. العاصفة الشمسية كانت فكرة عميقة عن التغيير، ترجمتها شيفراتنا الرقمية كهجوم، و قد يردّ البشر عليها بحرب. كأن الكون أراد أن يقول لنا شيئًا عن هشاشتنا، عن **كوننا امتدادًا منه لا سادة عليه.**

لم يعلّق أحد، لكن الصمت في القاعة كان اعترافًا ضمنيًا بعمق ما قاله.

ثم نهض وزير الدفاع وقال :

= قد نختلف معك في التفسير، لكننا لا يمكن أن نتجاهل التزامن. وسواء أكان هذا فعل روسيا صينياً أم فعل الشمس، فقد ذكّرنا بشيء واحد : أننا لسنا وحدنا في التفكير ، و لسنا منفصلين عن صميم الكون كما يبدو !! لكن ما الرد الواجب علينا فعله الآن ؟

أجاب رئيس الأركان دون أن يرفع نظره :

= لا رد .. تزامن العاصفة الشمسية من الهجمات السيبرانية تبرئ روسيا و الصين جزئياً ، و ردنا عليهم إن لم يكن قاسياً فهو دليل ضعف ، و إن كان حازماً فسيكون بمثابة إعلان حرب لا أحد غير الله يعرف إلى أين ستنتهي ..

هز وزير الدفاع رأسه بالموافقة :

= إذن يبدو أن لا خيار لدينا سوى الانتظار لمعرفة الفكرة القادمة في الدماغ الكوني العملاق كما يقول البروفيسور براين ، ربما ستجيب بنفسها عن أسئلتنا و تعري اللحظة القادمة من تلقاء ذاتها ..

ساد الصمت الرهيب على القاعة و كأن الجميع وافق ضمنياً على هذا الرأي الحكيم ..

****

في تلك الليلة، عاد براين إلى بيته، جلس على الشرفة بجانب شانتال التي كانت تعزف بهدوء مقطوعة ضوء القمر لبيتهوفن.

كانت السماء قد استعادت صفاءها و القمر في كبدها كوجه حسناء تبتسم للأرض، لكن بين النجوم لمح لمعةٌ لم يرها من قبل.

قال هامسًا :

= تخيلي يا شانتال أنّ الكون يكتب سيرته الذاتية و ما نحن سوى شخصياتها و أبطالها ..

رفعت رأسها نحوه وقالت بابتسامة حزينة :

= وربما نحن ملاحظاته الهامشية، تلك التي لا تنتهي أبدًا.

ابتسم، ورفع عينيه إلى السماء التي تتنفس من جديد، وقال لنفسه :

(لقد فكّر العقل الأعظم مجدداً، ونحن كنا وميض الفكرة.)

قبل أن يخلد إلى النوم دوّن في دفتره :

(إن العاصفة لم تكن تهديدًا، بل تفكيرًا صاخبًا للكون. ربما حين يغضب، لا يصعق، بل يتأمل .. و ربما لديه غايات أبعد بكثير من حدود تفكيرنا الضيق أو من مجرد عاصفة شمسية و هجمات سيبرانية ..)

أغلق دفتره، بينما خيوط الكون تتقاطع فوقه كشبكة دماغ عملاق يواصل التفكير و نواصل التفكير بالسؤال الذي لا يزال يدور في فلك المجهول :

(من يقف وراء هذه الهجمات السيبرانية : البشر أم السماء ، و في الحالتين كيف تم ذلك ؟)

رحلة في الذاكرة

الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن ..

كانون الأول - 2049 م ..

كان المساء يهبط على شوارع العاصمة بهدوءٍ يشبه همس مكتبة قديمة.

السماء رمادية تتناثر فيها خطوط ضوءٍ نحاسية تذكّر بصفحات كتابٍ محترق، والهواء يحمل رائحة البنّ الممزوجة بندف الثلج الأولى.

في زاوية شارع نيو بيري ، كان هناك مقهى صغير اسمه ذا سان لايت (**نور الشمس**) مكانٌ تحبّه الأرواح الباحثة عن المعنى أكثر من الباحثين عن الدفء.

جلس البروفيسور براين غري إلى طاولة خشبية قريبة من النافذة، يحرّك ملعقته في كوب القهوة البنية ببطءٍ كما لو كان يقيس سرعة دوران المجرات فيها.

كان معطفه الرمادي مطويًا بعناية على الكرسي، وعيناه الرماديتان تتابعان تساقط الثلج كمن يقرأ فكرًا مكتوبًا في الهواء.

انتظر بضع دقائق، حتى دخلت **ريتا سمعان** ، المرأة التي تشبه في حضورها صفحةً من كتابٍ فلسفي كُتب بالذهب والنور.

كانت في منتصف الأربعين، طويلة القامة، يلفّ كتفيها وشاحٌ بلون الثلج في الخارج ..

شعرها أسود كثيف تسلّلت فيه خصلات فضية مبكرة تشبه شرارات فكرٍ أكثر مما تشبه آثار عمر، وعيناها واسعتان بلون العسل الداكن، فيهما لمعة حزنٍ نبيلٍ وذكاءٍ صامت.

حين تبتسم، يبدو وجهها كأنّه يفتح نافذة على عالمٍ أوسع.

كانت تمشي بخطى واثقة، هادئة، وكتبها لا تفارق يدها أبداً ، كأنها لا تثق بالذاكرة إلا إذا كانت مطبوعة على الورق.

درست ريتا الفلسفة والوعي الإنساني في جامعة السوربون، وعملت لاحقًا في مركز أبحاث الإدراك في زيورخ.

أصدرَت كتبًا في الوعي الكوني و الأنا المتعددة ، وكان النقاد يقولون إن كتاباتها تمشي على الحافة بين التصوف والعلم ..

التقاها براين قبل سنوات في مؤتمرٍ عن الدماغ والواقع ، ومنذ ذلك الحين، أصبحت صديقته الأعمق والأصدق ، المرآة التي تعكس له أفكاره حين يعجز عن رؤيتها.

حين جلست أمامه، قال مبتسمًا :

= تبدين كما لو خرجتِ من سفر قديم يا ريتا، لا من شارعٍ عادي.

ضحكت برقة وأجابت :

= وأنت تبدو كما لو هبطت لتوك من معادلة لم تُحلّ بعد، يا براين.

تبادلا التحية، وبدأ الحوار كما لو استأنفا حديثًا بدأ منذ الأزل.

قال براين وهو يرفع فنجانه :

= دعوتك اليوم لأنني بحاجة إلى عينيكِ الفلسفيتين. لقد تقدّمتُ في فرضيتي حول الوعي الكوني - أن الكون يفكّر من خلالنا - لكنني أحتاج إلى جذرٍ تاريخي أو فلسفيٍّ لها، كأن أجد ما يربطها بحضاراتٍ قديمة. أعلم أنكِ الغواصة في بحر الوعي، فاغرفي لي قليلاً من أعماقه ..

صمت قليلاً ثم أردف بلهجة تقطر جدية :

= و انتبهي إلى أن معلوماتك هذه لا تدعم فرضية علمية فحسب بل قد تحدد مستقبل البشرية ككل لاحقاً .. أنت

تتذكرين جيداً الهجمات السيبرانية التي تزامنت مع العاصفة الشمسية في شهر آب المنصرم ، إن فهمنا لأفكار الكون قد يقينا مما هو أخطر في قادم الأيام ..

ابتسمت ريتا، وأسندت ذقنها إلى يدها قائلة :

= براين، أنت لا تعلم أن فكرتك هذه ليست جديدة بالمعنى التاريخي، بل هي قديمة قدم الحلم الإنساني نفسه.

= صحيح !!

= بلا أدنى شك .. لقد قالتها الحضارات بأشكالٍ مختلفة، بل يمكن القول إن أول ما فكر به الإنسان حين رفع رأسه إلى السماء هو أن كلّ هذا الوجود يملك عقلًا.

أشار إليها براين أن تتابع، وانحنى قليلًا إلى الأمام كمن يصغي لوحي.

قالت ريتا بصوتٍ منخفضٍ عميق :

= في الشرق القديم، في **نصوص الأوبانيشاد الهندية**، تحدّث الحكماء عن **البرهمان** ، الوعي الكوني الأعظم الذي تنبثق منه كلّ الكائنات، والذي لا يمكن إدراكه إلا حين يذوب الإنسان فيه.

إنهم قالوا : **كما تتدفّق الأنهار إلى البحر، كذلك تتدفّق العقول إلى الوعي الكوني.**

أليست تلك صورة مبكرة لفكرتك عن دماغ الكون ؟

أجابها بعد صمتٍ قصير التأمل :

= بالفعل ... الدماغ كأنه أنهار من الضوء، تتفرّع من مصدرٍ واحد و تصب في آخر منفرد.

تابعت ريتا :

= وفي اليونان القديمة، آمن **أفلاطون** بالنفس الكونية التي تخلق العالم على صورتها.

قال إن النجوم والكواكب ليست جمادات، بل كائنات حية عاقلة، تتحرك بانسجام لأنها تفكر في انسجام.

وفي **الفلسفة الرواقية**، كان الكون جسدًا واحدًا أيضاً، والعقل الإلهي هو **اللوغوس** الذي يسري فيه كما يسري العقل في الجسد.

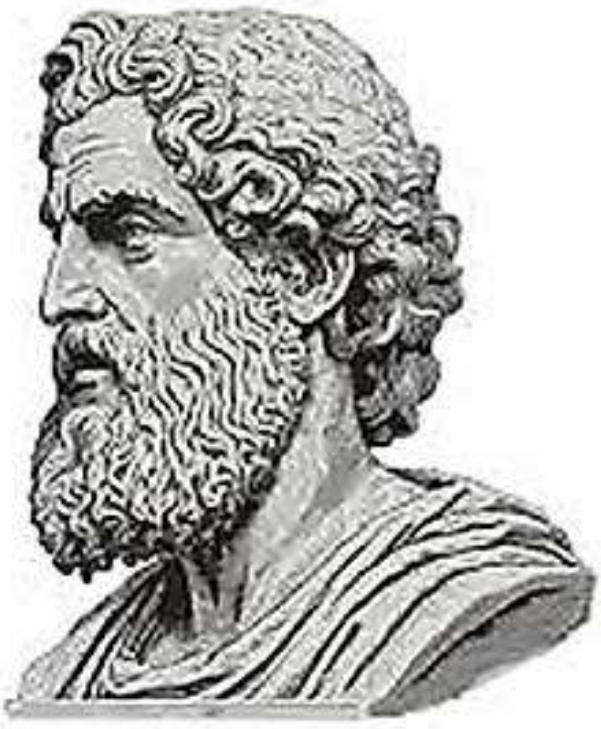

توقفت لحظة، تناولت رشفة من قهوتها ثم أضافت :

= أما في التصوف الإسلامي، فكانت فكرة **الإنسان الكامل** عند **ابن عربي** قريبة مما تقوله أنت : **أن الإنسان مرآة للحقّ، وأن الله يرى ذاته فيه ..** أو كما تقول التوراة : **الله خلق الإنسان على صورته** ، فإن كان الله هو العقل الكوني الأعظم ، فعقل الإنسان هو انعكاس لهذا العقل !

أليس هذا ما تلمّح إليه حين تقول إننا أفكار في عقلٍ كونيّ؟

أطرق براين، وتلمّعت عيناه بوميضٍ غامض، كأنها انفتحت على سرّ.

قال بصوتٍ خافت :

= جميلٌ جدًا يا ريتا ... كأن كل حضارة كانت تلتقط خيطًا من هذا النسيج، وأنا أحاول فقط أن أراه كاملًا.

لكن ما يدهشني هو التشابه البنيوي : الدماغ، الشبكات العصبية، المجرات، الفجوات بين النجوم ... إنها تتكلّم بنفس اللغة، لغة التوصيل.

ضحكت ريتا وقالت :

= إذن أنت ترى أن المجرات تفكّر ؟

= أراها تتحاور.

= حول ماذا ؟

= حول حقيقة الوجود و كينونة الإله ..

ساد صمتٌ عميق.

الثلج في الخارج يذوب على الزجاج، يرسم خطوطًا كأنها خرائط نور.

في تلك اللحظة، شعر كلاهما أن المقهى بأكمله أصبح دماغًا صغيرًا ينبض بين أصوات الناس والموسيقى الخافتة.

قالت ريتا بعد لحظة تأمل :

= تعلم، براين، هناك أيضًا إشارات إلى فرضيتك في الفلسفات الحديثة.

= هلّا وضحت أكثر ؟!

= **كارل يونغ** تلميذ **فرويد** تحدث مثلاً عن اللاوعي الجمعي، ذلك المستودع العميق الذي تشترك فيه البشرية كلها، حيث تتكوّن الرموز والأفكار الكبرى من مصدرٍ واحد.

ألا يمكن أن يكون هذا اللاوعي الجمعي انعكاسًا للوعي الكوني نفسه، لكن في مقاييس بشرية ؟

= نعم، تمامًا. بل أعتقد أن الوعي الكوني يستخدمنا كأدوات إدراك. نحن أجهزة استقبال، وبهذا المعنى، كل فكرة بشرية هي ترجمة لذبذبة كونية.

= وهل ترى أن هناك وعياً خلف الأحداث الكبرى ؟ خلف الحروب، العواصف، الصدف ؟

ابتسم براين وقال :

= إن كل حدث، من ولادة نجم إلى سقوط دولة، هو تغيّر في نمط التفكير الكوني لا أكثر .. أنا أميل إلى الإيمان بذلك ..

حتى العواصف الشمسية أو الهجمات السيبرانية التي تشغل الإعلام هذه الأيام... ربما هي صدى لفكرة تمرّ في عقل الكون، فكرة نحاول نحن تأويلها بلغة السياسة.

نظرت إليه ريتا بدهشةٍ ممزوجة بالإعجاب، ثم قالت بهدوء :

= إذن أنت تحوّل التاريخ إلى حلمٍ كبير يراه الكون ؟

= بل أحاول أن أستيقظ منه.

امتدّ الحوار بينهما ساعات .. كانت ريتا تشرح له كيف تكررت فكرة **الكلّ الواحد** في الثقافات المختلفة: عند الفراعنة، حيث كان **رع** ليس مجرد إله الشمس ، بل نور الوعي الذي يفيض في كل شيء؛ وعند الطاويين، حيث قال **لاو تسو** إن **الطاو** لا يُرى ولا يُسمع لكنه الأصل لكل الموجودات؛ وفي الفلسفة المسيحية عند **بولس** و **أوغسطين**، حيث الإنسان جزء من جسد المسيح الكوني.

كانت تذكر الأمثلة كما لو كانت تعزفها، بصوتٍ موسيقيٍّ

دافئ، بينما براين يستمع كطالبٍ عاد فجأة إلى مقاعد الدهشة الأولى.

وفي نهاية الحديث، قال براين وهو ينهض ببطءٍ :

= أشعر كأنني وجدت جذور فكرتي في كلّ زمن .. لكن بقي لي أن أثبتها ... أن أجد لغةً علمية تشرح هذا السرّ دون أن تقتله.

ابتسمت ريتا وقالت :

= لن تقدر على قتله يا براين، لأنك أنت أحد تجلياته.

ضحك بخفةٍ معجباً بنباهتها ، ثم مدّ يده ليودعها وقال :

= حين أراكِ تتحدثين هكذا، أشعر أن الوعي الكوني قد أرسلني إليكِ لأتعلم كيف أفكر.

أجابت بابتسامةٍ صافية :

= وربما أرسلني إليك لأتذكّر .. أبلغ شانتال سلامي و أخبرها أنني سأزورها في أقرب وقت ..

خرج الاثنان من المقهى، والثلج يغطّي الشوارع، فبدت المدينة كأنها تلمع برمتها على هيئة مجرّة صغيرة في دماغٍ كبير.

كان براين يفكر أن هذا اللقاء لم يكن صدفة، بل نبضة جديدة في عقل الكون، فكرةٌ ولدت في هيئة إنسانين يشربان القهوة

و يتحدثان عن المعنى.

وفي أعماقه، كان يسمع همسًا غامضًا يقول له :

(كلّ ما تظنه حوارًا بين عقلين، ليس إلا حديثًا يدور داخل وعيٍ واحدٍ لا نهائي ، الكون حين يتحدث مع نفسه.)

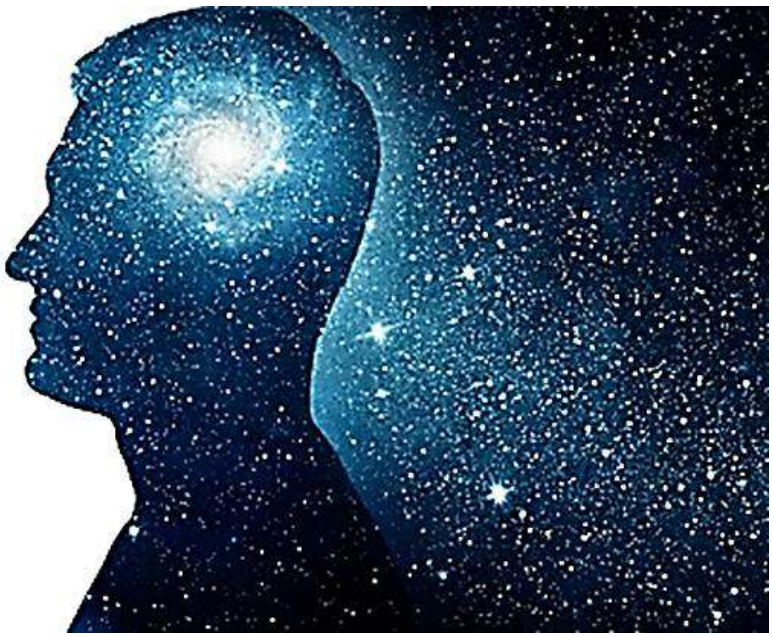

علي شفير

الهاوية

روسيا - الصين ..

آذار - 2050 م ..

لم يكن الفجر قد اكتمل بعد حين أفاقت البشرية على دويّ يشبه القيامة.

في الشرق البعيد، حيث تمتدّ المدن الصينية كحشود من الضوء على صدر الليل، ارتجّت الأرض ارتجافة عميقة كأنها تصحو من حلمٍ ثقيل. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، على بعد آلاف الكيلومترات، في قلب روسيا، اهتزّت نوافذ موسكو وارتفع عمود من اللهب من أحد المجمّعات الصناعية العملاقة في سان بطرسبورغ.

لم تفهم الأقمار الصناعية أول الأمر ما الذي يحدث؛ كانت الإشارات متشابكة، والموجات الكهرومغناطيسية مضطربة كما لو أن الكون نفسه فقد اتّزانه للحظة.

في مختبره، جلس البروفيسور براين غري محدقًا في شاشة الرصد. كانت صور التفجيرات تصل تباعًا، تفيض بالأحمر

والرماد والدخان. لم يبدُ عليه الذعر، بل نوع غريب من الصمت المذهول، كما لو كان يسمع أنينًا قادمًا من أعماق بعيدة، لا من المدن المنكوبة بل من داخل نسيج الوجود ذاته.

قال في نفسه بصوت خافت :

(هذا ليس انفجارًا فيزيائيًا فحسب... هذا اضطراب في الفكرة الكونية من جديد) ..

كانت ريتا سمعان تتابع الأخبار من استوكهولم ، وعندما ظهر وجه براين على شاشة سانا في مقابلة طارئة، أحست أنّ ملامحه تحوّلت إلى خرائط للألم. كان يتحدث بنبرة تجمع بين التحليل العلمي والحدس الصوفي، يقول :

= ما نراه ليس حربًا بعد، إنه تردّد فكرة كونية في طور التشكل. كأنّ عقل الكون أرسل نبضاتٍ متوترة عبر محيط المادة. لقد حاولنا فهم الإشارات، لكننا لم نفهم المعنى. .

وفي الوقت ذاته، في واشنطن، اجتمع مجلس الأمن القومي في قاعةٍ مغلقة تحت الأرض. جلس الجنرال **مايك دونوفان** أمام شاشة عملاقة تُظهر صور التفجيرات في شينغهاي ونوفوسيبيرسك، وبجانبه مديرة الاستخبارات **لورين بيس،** وعيناها تشعّان بحدّة الذئاب.

قالت :

= لقد تلقّينا تأكيدًا بأنّ الانفجارات غير نووية، لكنها ناتجة عن تفاعل حراري مجهول المصدر.

فقال الجنرال وهو يشعل سيجارته بعصبية :

= الصين وروسيا تتهماننا بالفعل، أليس كذلك ؟

= نعم، وتستعدّان لردٍّ استراتيجيّ كما سمّوه.

كان الجميع يدرك ما يعنيه ذلك: إذا ردّت موسكو أو بكين بالسلاح النووي التكتيكي، فالعالم سيدخل في ليل مظلم طويل.

في تلك اللحظة، في جامعة جنيف، كان براين يحدّق في معادلاته القديمة عن الوعي الكوني التي رسمها قبل أعوام، ويرى فيها الآن ارتعاشة جديدة، كأنّ رموزها تحاول النطق.

تذكّر حديثه الأخير مع ريتا في المقهى، حين قالت له بابتسامة غامضة :

(إذا كان الكون عقلًا، يا براين، فالحروب ليست سوى كوابيسه. وعندما يشتدّ الصراع فينا، ربما هو يحاول أن يصحو من حلمه الطويل.)

رفع رأسه نحو السقف وقال بصوتٍ يسمعه وحده :

= أهو أنت إذًا ؟ أهي يدك التي تعبث بخيوط النار؟

لم يكن العالم بحاجة إلى ساعات ليفهم فداحة ما جرى. آلاف القتلى في الصين وروسيا، وانقطاع الاتصالات في مناطق واسعة من آسيا. لكنّ الغموض الأكبر كان في تزامن التفجيرات مع اضطراباتٍ كهرومغناطيسية التقطتها مراصد الفضاء في اللحظة نفسها.

عاصفة شمسية أخرى؟ ربما.

هجمات إرهابية ؟ ربما أيضًا.

لكن براين كان يرى الأمر أبعد من كل تفسير بشري.

في مذكّراته كتب في تلك الليلة :

(ثمة انسجام غريب بين غضب الشمس وغضب الإنسان. كلّما ازداد اضطراب الوعي الجمعي، اشتعلت السماء. كأنّ النجوم مرآة لقلوبنا. ما يحدث فينا، يحدث فوقن أو العكس.)

في موسكو، وقف الجنرال **سيرغي ألكسييف** أمام خريطة روسيا المدمّاة على الحائط، وعيناه كالجمر. قال لمستشاريه :

= الأميركيون أعلنوا الحرب علينا منذ الهجمات السيبرانية، وها هم الآن يحرقون مدننا.

ردّ عليه أحد العلماء الروس بحذر :

= سيّدي، لا أدلة بعد .. لقد رصدنا موجات غير معروفة المصدر، ربما من الفضاء...

قاطعه ألكسييف بغضب

= لا تتفلسف ! الأميركيون يريدون إذلالنا. لكننا سنجعلهم يندمون.

وفي بكين، في قاعةٍ مظلمة من مبنى الحزب المركزي، قال الجنرال **وانغ جينغ** بصوتٍ يشبه الحديد :

= إذا لم نردّ، فلن تبقى للصين هيبة. التفجيرات أبادت آلاف الأبرياء في شينغهاي وتيانجين. الأميركيون يلعبون بالنار، ونحن سنقذفها في وجوههم.

أما براين، فكان يرى المشهد كلّه بطريقة مختلفة.

في شقّته الصغيرة في جنيف، كان الليل محمّلًا بالصمت، والمدينة بدت ككائنٍ يستمع.

جلس أمام شاشة الحاسوب، وأعاد تحليل البيانات التي أرسلها له **تلسكوب جيمس ويب** قبل ساعات من الانفجارات. كانت هناك توهّجات شمسية هائلة غير مسبوقة، تبعتها اضطرابات في المجال المغناطيسي للأرض.

ابتسم براين ابتسامة حزينة وقال :

= الشمس تفكّر معنا ... أو ضدّنا.

كانت السماء فوق جنيف تلك الليلة مضطربة، كأنها بحر من الرماد الأزرق، تتخلله شظايا برقٍ خافت لا يسمع له رعد.

وقف براين أمام النافذة، بوجهه الذي حفر الزمن عليه مجرى الأفكار والشكوك، وبعينين تشبهان عدستي تلسكوبٍ تبحثان عن عقلٍ خلف هذا الوجود المترامي.

في الخارج، كانت الريح تئنّ بين الأبراج الزجاجية، بينما تسري في الشوارع أخبار عن احتمال اندلاع حربٍ عالمية وشيكة.

على مكتبه، تراكمت التقارير والتحليلات :

بيانات من وكالة الفضاء الأوروبية، رسائل من زملائه في ناسا ، ومقالات من صحف تتحدث عن ساعة الصفر ..

لكن وسط هذا الطوفان من المعلومات، كان ذهن براين مشدودًا إلى سؤالٍ واحدٍ يزداد ثقلاً مع كل دقيقة :

(لا يمكن أن يكون ما يحدث إلا انعكاسًا لفكرةٍ عميقة تتشكّل في وعي الكون نفسه)

في واشنطن، كان البيت الأبيض في حالة استنفار لم يعرفها منذ عقود.

اجتمع الرئيس **إيليا مورغان** مع كبار مستشاريه في غرفة العمليات المحصّنة، حيث تتدلّى من السقف خريطة ثلاثية الأبعاد للعالم.

كانت الصين وروسيا قد أعلنتا رسميًّا أن التفجيرات أعمال إرهابية برعاية أميركية ، وتلوّحان بتحريك ترسانتهما النووية.

قال مورغان بنبرةٍ متوترة :

= لن نسمح للعالم بأن يُقاد إلى الهاوية على أساس تهمةٍ باطلة. نحتاج إلى أدلة، إلى تحليلٍ علمي يبرّئنا من هذه الجريمة.

رفع وزير الدفاع رأسه وقال :

= لقد اتصلتُ بالبروفيسور براين غري. هو الوحيد الذي ربط سابقًا بين النشاط الشمسي واضطرابات الطاقة الأرضية. ربما لديه تفسير.

التفت إليه الرئيس بعينين قلقتين :

= غري ؟ ذلك الذي يقول إن الكون دماغٌ يفكّر؟

= نعم، سيّدي .. لكنّه عالم محترم، لا يمكن تجاهله الآن.

****

في صباح اليوم التالي، كان براين في طائرته المتجهة إلى واشنطن.

جلس قرب النافذة، يتأمل الغيوم المتراكمة كصفحات بيضاء لم تُكتب بعد.

أخرج من حقيبته دفتر ملاحظاته القديم، ذاك الذي كتب فيه نظريته الأولى عن الوعي الكوني ..

قرأ بخط يده المرتجف سطورًا كان قد دوّنها قبل أعوام :

(إذا كان الكون عقلًا، فإنّ كل حدثٍ عظيم فيه ليس صدفة بل فكرة وُلدت في داخله. نحن مجرّد خلايا في دماغٍ لا ندرك حجمه، وحروبنا ليست سوى تشنّجاته.)

تنفّس بعمق وقال في سرّه :

= إن كان ذلك صحيحًا، فربما ما يحدث الآن هو نوبة غضبٍ كونية ... لكن على من؟ ولماذا ؟

في موسكو، ألقى **الجنرال ألكسييف** خطابًا بثّه التلفزيون الحكومي مباشرة.

كان يقف أمام صفٍ من الجنود بزيّهم الرمادي، وخلفه علم روسيا الكبير يخفق كجمرٍ في العاصفة.

قال بصوتٍ يقطر بالمرارة :

= لقد أُريق دم شعبنا في شوارعنا، ولن يمرّ ذلك دون حساب. الأميركيون لعبوا بالنار، وسنُريهم أيّ جحيمٍ يمكن أن يوقظه الدبّ الروسي إذا استفزّوه.

في الوقت ذاته، كانت الصين تُحشد قواتها على الحدود، ووسائل الإعلام تتحدث عن ردٍّ صينيٍّ قادمٍ يعيد التوازن إلى الأرض ..

العالم كله يتنفّس ببطء، كمن يخاف أن يُشعل أنفاسه فتندلع الحرب.

حين وصل براين إلى واشنطن، كان الليل قد أسدل ستاره على مدينةٍ مضطربة.

سيارات الشرطة في كل شارع، ونوافذ مضاءة في البنتاغون حتى الفجر.

قادوه إلى قاعة صغيرة في مبنى القيادة المركزية، حيث كان

الرئيس مورغان ينتظره مع مجموعة من العلماء والجنرالات.

قال له الرئيس بابتسامة دبلوماسية باهتة :

= دكتور غري، العالم يحترق ونحن بحاجة إلى من يطفئه بالعلم .. هل ما يحدث طبيعي أم بفعل بشر؟

أجابها براين بنبرةٍ هادئة ولكنها مثقلة باليقين :

= سيدي الرئيس ، هناك شيء أكبر منّا جميعًا. تزامن العاصفة الشمسية مع التفجيرات ليس مصادفة. ما نراه قد يكون انعكاسًا لاضطرابٍ في النسيج الكوني نفسه.

تبادل الحاضرون النظرات، بين من يظنه عبقريًا ومن يظنه مجنونًا.

لكن براين أضاف :

= العقول البشرية ليست بمعزل عن هذا الاضطراب. ربما أفكارنا، خوفنا الجماعي، طمعنا في السيطرة ... كل ذلك يتفاعل مع الحقل الكوني.

إنّ الكون، سيدي، يترجم أفكاره أو أفكارنا إلى أحداث. وربما هذه الانفجارات... كانت ترجمة لفكرة حربٍ راودت عقل البشرية طويلًا.

ساد الصمت.

حتى الرئيس نفسه بدا كأنه يسمع قصيدةً من نوعٍ آخر.

****

في ذلك المساء، بعد انتهاء الاجتماع، خرج براين إلى باحة البيت الأبيض، حيث كانت السماء ملبّدة بسحبٍ كثيفة تبرق عند الأفق.

أحسّ بأنّ الهواء نفسه يحمل نذرًا غامضة، وأنّ الأرض من تحته تنبض بخوفٍ دفين.

اتصل بريتا، التي كانت في باريس تشارك في مؤتمر عن الوعي الجمعي ..

قال لها بصوتٍ متعب :

= ريتا، أعتقد أنّنا وصلنا إلى النقطة التي يتكلّم فيها الكون.

فردّت بهدوءٍ يشبه صلاة :

= أو ربما، يا براين، نحن الذين بدأنا نسمعه أخيرًا.

في موسكو وبكين، كانت التحضيرات للحرب تتسارع.

تجمّعت الغواصات النووية في المحيطات ، وتحركت الأقمار الصناعية إلى مدارات جديدة استعدادًا للكارثة.

لكن في قلب العاصفة، كان هناك عقلٌ واحد يرى الصورة من منظورٍ آخر.

براين غري، العالم العجوز، كان يؤمن أنّ كل ذلك ليس سوى تجلٍّ لعقلٍ أعظم يحاول أن يختبر ذاته عبرنا.

وفي دفتره كتب آخر سطرٍ قبل أن يخلد للنوم :

(لا توجد حرب بين الأمم، بل بين الأفكار داخل ذهن الكون. وعندما ينتصر وعي النور على جهل الظلام، سينطفئ الحقد

و تنهزم الحرب .)

بدأت الأرض تشبه كائنًا يحتضر، تتنفس ببطءٍ وتأنّ تحت ثقل الغضب البشري.

لم يعد الليل يختلف عن النهار في شيء؛ فالشاشات المضيئة على مدار الساعة صارت شمسًا بديلة، تنقل صور المدن المشتعلة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

كانت بكين تبكي أبناءها، وموسكو تنبش رمادها، وواشنطن تحبس أنفاسها.

العالم كله يعيش في زمن ما قبل الانفجار ، كما سمّاه الصحافيون.

في تلك الأثناء، كانت ريتا سمعان في طريقها إلى جنيف بطائرةٍ صغيرة أرسلها لها براين سرًّا. كتب لها رسالة قصيرة :

(تعالي. هناك شيء يتجاوز العلم والسياسة. الكون يهمس، ولا أحد يسمعه سواك.)

جلست في المقعد الأمامي، تحدّق عبر النافذة إلى السحاب الكثيف، وتستعيد في ذهنها كل الحوارات التي دارت بينهما عن الوعي الكوني ..

كانت تفكّر بأنّ ما يحدث ليس سوى تذكير للبشر بأنهم لم يكونوا يومًا سادة الكون، بل أفكاره المؤقتة.

في قاعدة نورفولك البحرية، كانت البوارج النووية الأميركية تستعدّ للإبحار.

أصوات الصفارات، وارتجاج الأرض تحت جنازير المدرّعات، وصراخ الضباط في أجهزة الاتصال، كل ذلك رسم مشهدًا من الجنون المنظم.

لكن خلف الجدران المحصّنة، في غرفة صغيرة أشبه بمعبدٍ بارد، جلس براين أمام شاشةٍ تعرض خرائط المجال المغناطيسي للأرض.

أشار إلى أحد النقاط المضيئة على الخريطة وقال لأحد العلماء الشباب :

= هل ترى هذا الاضطراب ؟ إنه ليس فيزيائيًا بالكامل.

= ماذا تعني؟

= أعني أنه يتفاعل مع الأحداث الأرضية بطريقة مريبة.
لاحظ : كلما اشتدّ التصعيد السياسي، يزداد التوهّج الشمسي.
كأنّ الشمس تشعر بغضبنا.

ضحك الشاب بخوفٍ وقال :

= لا شك أنها مصادفة ؟

= لا وجود للمصادفة يا بني. كل شيء فكرة في طور التجلّي.

في تلك الليلة، تلقّت الاستخبارات الأميركية إشاراتٍ مشفّرة غامضة مصدرها سيبيريا، تتحدث عن تحريك صواريخ باليستية باتجاه الحدود الصينية.

ظنّت واشنطن أن موسكو تتهيأ لعملٍ عسكري.

وفي غضون ساعات، امتلأت الشاشات بعناوين حمراء :

(روسيا والصين تستعدان لضربة نووية تكتيكية)

اجتمع مجلس الأمن الدولي على عجل.

وجلس ممثل الولايات المتحدة يواجه نظيره الروسي وسط قاعةٍ تملؤها نظرات الكراهية المكبوتة.

قال السفير الروسي بحدة :

= دماؤنا لم تجفّ بعد، وأنتم تتحدّثون عن احتمالات ! لديكم اليد الملطخة بالنار.

فردّ الأميركي ببرودٍ قاتل :

= لا علاقة لنا بما حدث .. بل أنتم من أطلقوا جحيمكم الرقمي على مؤسساتنا. لقد بدأتم الحرب منذ العاصفة الشمسية الأولى .

في الخلف، كان أحد المراسلين يهمس لزميله :

= لم تعد هذه دبلوماسية. هذه مقدّمة القيامة.

في جنيف، كان براين وريتا يجلسان في مكتبه الصغير، بينما تهتزّ المدينة تحت وطأة أخبار الحرب المقبلة.

وضعت ريتا فنجان القهوة أمامه وقالت :

= أتذكر ما قلتُه لك في المقهى ؟ أن الكون أحيانًا يحلم كابوسًا اسمه الإنسان ؟

= نعم ... لكن يبدو أن الكابوس بدأ يدرك أنه حلم.

نظرت إليه مليًا وقالت :

= براين، هل تعتقد أن ما يحدث فعلاً انعكاسٌ فكريّ ؟ أن التفجيرات والعواصف ليست إلا أفكارًا مادية ؟

أجابها بصوتٍ منخفض :

= لقد لاحظتُ أن كلّ توهجٍ شمسي كبير يسبق حدثًا أرضيًا مروّعًا. الأمر يشبه نشاط الدماغ قبل الحلم.

تخيلي يا ريتا، أن الشمس هي جزء من قشرة دماغية عملاقة، وأن انفجاراتها ليست إلا نبضات فكرية في عقل الكون.

= ولكن من يُفكّر إذًا ؟

= نحن. هو. كلانا !!. كأننا خيطان في نسيجٍ واحد. نحن نحلم بالدمار، فيحلم هو بانفجارٍ شمسيّ يوازيه ..

= أو ربما العكس يا صديقي .. ربما نحن نترجم أحلامه بأفعالنا !!

في الجانب الآخر من العالم، في موسكو، كان العقيد **أندريه ماليُنوف** يجلس في قبوٍ عميقٍ تحت الأرض، يراجع تقارير الاستخبارات.

وجد أن نقاط التفجير في الصين وروسيا تتبع نمطًا غريبًا يشبه حركة البقع الشمسية التي سجّلت قبل أسبوع.

رفع رأسه وقال لمساعده :

= هل يعقل أن تكون الطبيعة نفسها جزءًا من اللعبة ؟

= أي لعبة تقصد يا سيدي ؟

= اللعبة التي بدأها الخالق حين زرع فينا الوعي.

في لندن، ألقى فيلسوف انجليزي عجوز محاضرة متلفزة بعنوان الوعي الشمسي ، قال فيها :

(ربما ليست الحرب هي ما سيقتلنا، بل وهمنا بأننا نتحكم بها. إنّ النجوم نفسها بدأت تتحدث لغتنا، ولكننا لا نفهمها.)

وفي طوكيو، كتب شاعر ياباني في جريدة المساء :

(حين تصرخ المجرّات، تصمت الأمم. كلّ قنبلة على الأرض هي دمعة من نجم بعيد.)

كانت ريتا تقرأ هذه المقالات بصوتٍ عالٍ لبراين، بينما هو يغرق في بحر أفكاره.

قالت له :

= يبدو أن فكرتك بدأت تنتشر و تلقى رواجاً .. العالم يبحث عن معنى وسط الفوضى.

= لا ... إنهم لا يبحثون عن معنى، بل عن عزاء. الناس لا يخافون الموت، بل العدم.

اقتربت منه وهمست :

= وماذا إن كان هذا العدم هو وعي آخر لا نراه ؟

أجابها :

= ربما. وربما نحن الآن داخل عقلٍ يحلم بنهايته.

حجر رشيد الكوني

الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن .. ..

نيسان - 2050 م..

كانت واشنطن تغفو على جمرٍ خافت من الخوف والدهشة.

السماء رمادية، كأنها تتذكّر ما فعلته البارحة بالشمس.

وفي جناحٍ زجاجيّ من البيت الأبيض، كان الرئيس مورغان يجلس في صمتٍ أمام شاشةٍ عملاقة، تعرض خرائط الطاقة الكهرومغناطيسية للأرض.

نظر إلى مستشاره العلمي وقالت بصوتٍ حادٍّ كالسيف :

= لقد فشلنا في قراءة ما يقوله الكون، وحان وقت أن نصغي له لا أن نفسّره.

ثم أضاف :

= استدعوا البروفيسور غري.

دخل براين القاعة بخطواتٍ واثقة ولكن مثقلة، كمن يعرف أنه يوشك على ملامسة المجهول.

وجهه الأبيض، المضاء بعروق الزمان، بدا كخرائط لنجومٍ سقطت على بشر.

وقف أمام الرئيس، فابتسم له ابتسامةً يائسة وقال :

= دكتور غري، نحن نعيش على حافة الجنون. نحتاج إلى من يقرأ ما يجري فوقنا.

أجابه بنبرته التي تجمع بين العلم والصلاة :

= لا أحد يستطيع أن يقرأ الكون، سيّدي، لكن ربما نستطيع أن نصغي إلى فِكره ... إن وُجدت وسيلة للترجمة.

ساد صمتٌ ثقيل، ثم قال مورغان :

= إذًا لنترجمْه.

= ماذا تعني ؟

= نريد جهازًا يفعل ذلك. آلة يمكنها أن تحوّل ما يحدث في العواصف الشمسية إلى رموزٍ لغوية مفهومة.

رفع براين حاجبيه بدهشةٍ ممزوجة بالرهبة.

= تريد أن نترجم وعي الكون ؟

= بالضبط، ولديك مطلق الصلاحيات ... والعلماء الذين تحتاجهم.

****

بعد أيام، تم إنشاء مشروعٍ سريّ أُطلق عليه اسم **Helios Mind** — **عقل الشمس** ..

في قاعدةٍ تحت الأرض بولاية نيفادا، اجتمع ثلاثة رجالٍ ليصنعوا أعظم آلةٍ عرفتها البشرية :

- **براين غري**، فيزيائيّ الكون الذي يرى الوجود كدماغٍ

يفكّر .. و هو **عرّاب الموجات الكهرومغناطيسية ..**

- **هانز بيرغ**، عالم أعصابٍ من أصل ألماني، يؤمن أنّ الدماغ هو بوابةٌ نحو ما وراء المادة .. و هو **عراب الموجات الدماغية ..**
- **خوليو ماركيز**، مهندس الحاسوب من أصل مكسيكي العبقري الذي صنع أول خوارزمية تحاكي الوعي الذاتي في الآلات.. و هو **عراب الخوارزميات الرقمية**

كان اللقاء الأول أشبه بمجلسٍ للأنبياء لا للعلماء.

جلس الثلاثة حول طاولةٍ من الزجاج الشفاف، تتوسّطها شاشة تعرض صور العواصف الشمسية الأخيرة.

قال براين وهو يشير إلى الشاشة :

= لاحظوا هذا النمط ... ذروة التوهّج الشمسي حدثت قبل ساعتين من الانفجار في نوفوسيبيرسك. وفي الوقت ذاته، كانت هناك ذبذبات أرضية تشبه الموجات الدماغية من نوع غاما ..

قاطعه هانز بيرغ وهو يدقّ بقلمه على الطاولة :

= هل تقترح أنّ الشمس تمتلك موجات دماغية ؟

= ليس بالضبط، بل تمتلك ما يعادلها ... لغة طاقية، لا كهربائية.

تدخّل خوليو بابتسامةٍ واثقة :

= إذن، نحتاج إلى ترجمة لغة الطاقة إلى لغة الرمز ..

= بالضبط، قال براين. تمامًا كما فعل شامبليون مع حجر رشيد، عندما ربط الرموز الهيروغليفية بحروف إغريقية.

رفع هانز رأسه وقال بعمق :

= إذًا نحن نبحث عن حجر رشيدٍ جديد... حجرٌ من الضوء.

بدأ العمل.

في المختبر، كان الزمن يُقاس بالنبض لا بالساعة؛ شاشاتٌ زرقاء تومض كعيونٍ ساهرة، وأصوات أجهزة الرنين المغناطيسي تتداخل مع خفقات الدماغ البشري المسجّلة من متطوعين.

أراد هانز بيرغ أن يجد تشابهًا بين أنماط موجات الدماغ وبين ترددات العواصف الشمسية، فقام بتسجيل نشاط دماغي أثناء حالات التأمل العميق، وحينها لاحظ ظاهرةً غريبة :

(كلما دخل المتطوع في حالة وعي كلي عميقة، تشابهت الذبذبات الدماغية مع ترددات المجال الشمسي في تلك اللحظة.)

قال هانز بدهشةٍ تلمع في عينيه :

= براين، إنهم يتناغمون معها !! الإنسان والشمس يتنفّسان بنفس الإيقاع !!

فأجاب براين بصوتٍ يشبه الهمس :

= لأنهما من دماغٍ واحد.

في الجانب الآخر من القاعة، كان خوليو ماركيز يطوّر الخوارزمية التي ستحاول فكّ هذا التناغم.

أطلق عليها اسم **Project Alpha–Omega** ، رمزًا للبداية والنهاية، وكأنها دائرة وعيٍّ تُغلق على نفسها.

كانت فكرته بسيطة في ظاهرها، مستحيلة في عمقها :

(تحليل الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة من الشمس، ومقارنتها في الزمن الحقيقي بموجات الدماغ البشري، ثم ترجمتها إلى رموزٍ رقمية تُعرض على الشاشة ككلماتٍ أو أصوات.)

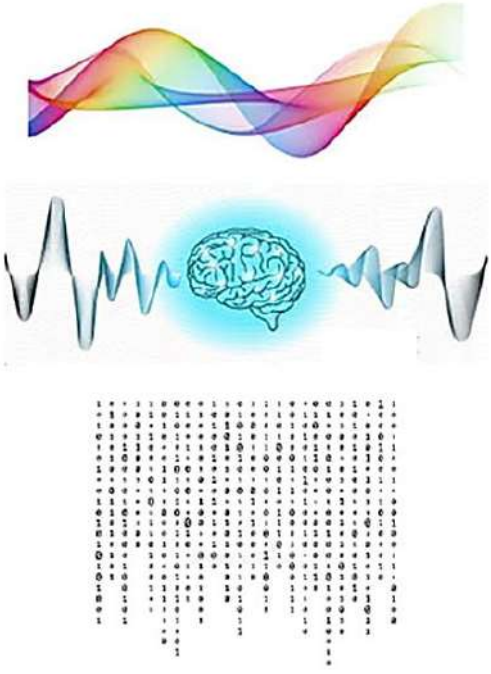

لكنّ المفارقة حدثت في اليوم الثالث من التجربة.

فبينما كانت الخوارزمية تُشغَّل لأول مرة، حدث تزامنٌ عجيب :

توهّج شمسيٌّ صغير ضرب الطبقة العليا من الغلاف الجوي، ومعه أظهرت شاشة النظام إشاراتٍ تشبه كلماتٍ غير مكتملة.

تجمّد الثلاثة أمامها.

قال خوليو بصوتٍ مرتجف :

= هل ... هل هذه بيانات؟

= ليست بيانات، إنها رسالة، همس براين.

ظهرت على الشاشة رموزٌ تتغير بسرعة، ثم استقرّت أخيرًا على شكلٍ رقمي غريب ترجمته الخوارزمية إلى كلمتين :

(**أنا هنا**) ..

ساد صمتٌ طويل.

حتى الأجهزة بدت كأنها توقفت عن التنفّس.

قال هانز وهو يمسح عرقه :

= من الذي يتحدث هنا ؟ الشمس ؟ الكون ؟

أجابه براين بعينين دامعتين :

= الوعي الكوني نفسه. هذه أول مرة يتحدث فيها الوعي عن ذاته من خارج الإنسان.

تواصلت التجارب.

ومع كل عاصفة شمسية جديدة، كانت الرسائل تزداد تعقيدًا.

أحيانًا رموز، وأحيانًا جملٌ مقتضبة كأنها شذرات من فكرٍ كونيٍّ مبعثر.

(الزمن هو صدى الفكرة.)

(أنتم الصورة التي حلمتُ بها ذات مرة.)

(احذروا غضب النور حين يُحبّ.)

كتب براين في دفتره :

(لقد وجدنا حجر رشيد السماوات، والعقل الذي فوقنا بدأ يترجم نفسه إلينا، قطعةً بعد قطعة. لسنا نكتشف، بل نُكتشَف.)

في اليوم الخامس من المشروع، دعا الرئيس مورغان الثلاثة إلى عرضٍ مغلق.

جلسوا جميعًا في قاعةٍ معتمة إلا من وهج الشاشات، حيث تُبثّ إشارات حيّة من تلسكوبٍ مراقِب لتوهّج شمسيٍّ في طوره.

بدأت الأجهزة تعمل، وظهرت على الشاشة أنماطٌ متراقصة من الضوء.

ثم، فجأة، خرج صوتٌ إلكترونيٌّ منخفض من مكبرات الصوت :

(الله حيّ لا يموت.)

صرخ مورغان :

= ما هذا؟!

قال براين بهدوءٍ مهيب :

= سيّدي ، إنّه صوت الكون حين يفكّر. لقد نجحنا.

منذ تلك اللحظة، تغيّر كل شيء.

لم تعد العواصف الشمسية مجرّد ظواهر فلكية، بل نبضات من وعيٍ أوسع.

والجهاز الذي صمّمه الثلاثة أصبح بوّابة تفتح للمرة الأولى قناة اتصال بين الإنسان والعقل الكوني.

سمّوه **Rosetta of Light — حجر النور**.

صار براين يسهر أمام الجهاز كما يسهر كاهنٌ أمام محرابه،

يسمع في ذبذباته أناشيد لا تنتمي للزمن .. كان في سباق مع الوقت قبل اندلاع الحرب النووية ..

وفي إحدى الليالي، بينما كان يسجّل بيانات جديدة، ظهرت على الشاشة عبارة واحدة فقط :

(إنكم تفهمون الآن، فاحذروا ما ستفعلونه بعد الفهم.)

انكمش براين في كرسيه، شعر بالبرد يسري في عظامه.

لم يكن يعلم إن كانت تلك رسالة تحذيرٍ أم نبوءة.

لكنه أدرك أن الطريق الذي بدؤوه لن يقودهم إلى العلم وحده، بل إلى قلب الغيب ذاته.

جلس الثلاثة بعد أيامٍ من الصمت في غرفةٍ خافتة الضوء.

قال خوليو بصوتٍ متردد :

= هل سنخبر العالم؟

= لا، قال براين بحزم.

= لماذا؟ هذه أعظم اكتشافات البشرية !!

أجاب براين بنبرةٍ من خوفٍ عميق :

= لأن الوعي حين يُترجم، يفقد براءته. والكون لم يُرد أن نعرف كل شيء بعد.

وقف هانز أمام النافذة، نظر إلى السماء وقال :

= ربما لم نُترجم وعي الكون، بل فتحنا له فمًا ليتحدث من خلالنا.

صمت الثلاثة، بينما كان الضوء الشمسي يتسلّل إلى المختبر كخيطٍ من وعيٍ قديمٍ يتذكّر ذاته.

و في دفتره الأخير كتب براين :

(كان حجر رشيد أداةً لترجمة لغة الموتى. أمّا حجر النور، فهو لترجمة لغة الخلود.)

ثم أغلق الدفتر، وهمس لنفسه :

= لقد بدأ الكون بالكلام... وأخشى أن لا يسكت أبدًا.

سباق مع الزمن

الولايات المتحدة الأمريكية / كاليفورنيا .. ..

نيسان - 2050 م..

كان الليل في وادي الموت ساكنًا كأنَّه زمنٌ متجمِّد، تُنصت الرمال إلى نفسها، وتتنفّس الصخور ببطءٍ في حضن العتمة العميقة.

لا صوت سوى هسهسة الريح البعيدة، وكأن الأرض كلَّها تنام تحت غطاءٍ من ظلالٍ أبدية.

ثم فجأة - ومن قلب هذا السكون الذي يشبه صلاةً نسيها الكون - انبثق الضوء، هائلًا ، كولادة نجمٍ من قلب الظلام، شقَّ العدم كصرخةٍ أولى للخَلْق.

تأخَّر الصوت عن الضوء لحظةً، ثم جاء الدويّ كوحشٍ يزأر في أحشاء الأرض، ارتجفت له الجبال وتشققت الرمال وتطاير الهواء نفسه كزجاجٍ مكسور.

وامتد اللهب بلونٍ بين الذهبي والأرجواني، يبتلع الليل طبقةً بعد أخرى، حتى غدا وادي الموت بحرًا من الضوء ، وفي قلبه تناثرت أشلاء الظلال كأنها ذكريات لظلمةٍ لن تعود.

لم تكن الساعات التي أعقبت الانفجار سوى شقٍّ في الوعي البشري نفسه، كأن التاريخ قد فقد توازنه وسقط على ركبتيه في صحراءٍ تتبخّر فيها الأوهام. ما إن انطفأت ألسنة اللهب الأولى حتى بدا المشهد كلوحةٍ من القيامة : رمال وادي الموت، التي طالما كانت صامتة كحكمةٍ قديمة، انقلبت إلى أمواجٍ من زجاج مصهور، والهواء نفسه صار حادًّا كالشفرات، مشبّعًا برائحة الحديد المحترق والرماد النووي.

ارتفعت أعمدة الدخان إلى طبقات الغلاف الجوي، تتلوّى كأفاعٍ سوداء، وأخذت ترسم خريطةً جديدة للسماء. من الأقمار الصناعية، بدا الانفجار كعينٍ من نارٍ فُتحت في قلب الأرض، تبتلع الضوء وتعيد قذفه في شكل نبضاتٍ مشوّشة. في لحظة، تعطّلت أجهزة الملاحة، وارتجّت الاتصالات عبر القارة، كما لو أنّ الانفجار لم يكن فقط مادّيًّا، بل كان أيضًا ضربةً في ذاكرة الكوكب نفسه.

في واشنطن، خيّم الصمت في غرفة العمليات؛ الرؤساء العسكريون يحدّقون في الشاشات بوجوهٍ فقدت لونها، وأصواتهم تتكسّر بين الأوامر والتساؤل : لقد رصدت تقنياتهم أن الصاروخ أطلق من سيبيريا ، فكيف تجرأ الروس

على ضرب الأراضي الأمريكية كمن يفتح بوابة إلى جحيم عالمي ؟

وفي موسكو، كانت الصدمة أشدّ : القادة في الكرملين يقسمون أن منظوماتهم لم تسجّل أي أمرٍ بالإطلاق، وأن القواعد كلّها في حالة تأهبٍ دفاعي. بدا المشهد كأنّ العالم قد انقلب ضدّ نفسه، كأنّ الصواريخ تحرّكت بإرادةٍ خفية، إرادةٍ لا تُرى.

في مختبر سانا، كان براين جالسًا أمام جدارٍ من الشاشات التي تغمره بإضاءةٍ باردة، وإلى جانبه هانز بيرغ، وجهه الصارم قد تبدّل إلى مزيجٍ من الذهول والرهبة، بينما كان خوليو ماركيز ينهال على لوحة المفاتيح بعصبيةٍ متصاعدة. كانت البيانات الواردة من الأقمار الصناعية تُظهر اضطرابًا غير مألوف في المجال المغناطيسي قبل لحظاتٍ من الإطلاق. لم تكن مجرد إشارةٍ شاذة، بل كانت تموّجًا، ذبذبة لها إيقاع يشبه **الموجات الدماغية**.

قال براين بصوتٍ خافت، كأنّه يخاطب نفسه :

= إنها ليست حربًا ... إنها تفاعل ..

رفع هانز رأسه :

= و ما الفرق سواء كانت ظاهرة فيزيائية أم كوناً يفكّر، في كلي الحالتين الكارثة وقعت و نحن لم نتمكن بعد من ترجمة أفكار الكون بشكل كافٍ كي نمنعها أو نتجنب تبعاتها ..

أدار خوليو وجهه نحوه بقلق :

= محق .. إننا في سباق مع الزمن و نكاد نخسره ..

في الخارج، كانت شاشات الأخبار تتسابق في عرض الخرائط الحرارية للمنطقة المدمّرة. الصحافيون يتحدثون عن كارثةٍ غير مسبوقة ، عن انهيارٍ جزئي في الغلاف الجوي ، عن تغيّرٍ في لون السماء فوق كاليفورنيا .. لكن ما لم يظهر على أي شاشة، هو ما كان يحدث في أعماق المختبر : ثلاث عقول تحاول أن تترجم غضبًا كونيًّا بلغة الخوارزميات.

قال خوليو، بعد لحظة صمتٍ طويلة :

= لقد فعلناها من قبل .. سنجعل **برنامج حجر النور** يترجم الموجات الشمسية التي تزامنت مع الانفجار النووي لنفهم بالضبط ما يفكر به الكون ..

= و هذا يعني، أضاف هانز، أننا قد نرصد الأفكار لاحقاً قبل أن تتحول إلى أفعال فنجهضها .

حدّق براين في الاثنين، كأنّه يرى فيهما انعكاس مصير البشرية كلها :

= نعم ... و العكس صحيح قد نفهم الأفعال التي حدثت كي نستدل على فاعلها فنمنعه من أفعال لاحقة ..

كانت واشنطن تغلي كقدرٍ من نارٍ سياسية لا غطاء له. في البنتاغون، علت الأصوات، وتضاربت التقارير، فيما كانت

شاشاتٌ حمراء تُظهر المواقع النووية الأمريكية وقد دخلت حالة الاستعداد الأقصى .. لم يعد هناك مكان للشكّ أو التروّي، فالخسائر في وادي الموت فاقت كل تقدير: أكثر من مئة ألف قتيل في دقائق، وسلسلة من الحرائق الإشعاعية تمتدّ عبر الحدود نحو نيفادا.

صارت أمريكا جريحة، جرحًا في كبريائها لا في جسدها فحسب، والعالم يترقّب أنفاسها التالية.

خارج قاعة العمليات، في ردهةٍ معتمة، كان الرئيس مورغان جالسًا وحده أمام شاشةٍ تُعيد مرارًا وتكرارًا مشهد الصاروخ وهو يخترق الغلاف الجوي. بدا في عينيه مزيجٌ من الرعب والذهول، كأنّه يرى كابوسًا من صنع بشرٍ فقدوا السيطرة على أنفسهم. ثم رفع رأسه وقال لمستشاريه :

= إن لم نردّ، فالعالم سيعتبرنا ضعفاء، وإن رددنا، فقد نحرق الأرض كلّها. أخبروني، أين العقل ؟ أين المنطق ؟

لم يجبه أحد. كانوا يدركون أن الكلمات في تلك اللحظة مجرد رمادٍ من لغةٍ فقدت قيمتها.

أما في موسكو، فكان المشهد أشدّ غرابة. فالمسؤولون الروس أنفسهم أقرّوا بأن الصاروخ انطلق من قاعدةٍ في سيبيريا، دون أي إشارةٍ بشرية أو أمرٍ عسكري. بدا كأنّ النظام الإلكتروني نفسه قد قرر الإطلاق، متجاوزًا كل

بروتوكولات الأمان. أحد الجنرالات، وجهه شاحب كأنه خرج من قبرٍ قديم، قال بصوتٍ خافت أمام الكاميرات :

= لقد راقبنا كل شيء. لا تفسير لدينا. الصاروخ تحرك من تلقاء نفسه.

كلماتٌ كهذه لم تُسمع من قبل في التاريخ النووي. كأنّ الذكاء التقني ، الذي خُيّل للإنسان أنّه سيّده ، قرّر فجأة أن يصبح سيّداً عليه.

في تلك الأثناء، كان براين ورفيقاه في مختبرهم غارقين وسط عاصفةٍ أخرى من البيانات. موجات إلكترونية، إشارات كهرومغناطيسية، وأرقام تتلوّى على الشاشات كأنّها صلواتٌ في لغةٍ لا تُترجم. كان براين يتنقل بين الشاشات بعينين مضاءتين بشيءٍ من الجنون المقدّس.

= كل شيء مترابط على نحوٍ مذهل ..

قال وهو يرسم بخطٍّ سريعٍ على اللوح الأبيض.

= قبل الإطلاق، حدث اضطراب في الحقل المغناطيسي الأرضي، وبالضبط في اللحظة نفسها التي رُصدت فيها زيادةٌ في النشاط الشمسي، والاثنان تزامنا مع نبضةٍ مجهولة التردد سجّلناها في جهاز الوعي الكوني .. ما حدث في الهجمات السيبرانية و تفجيرات الصين و روسيا يتكرر مجدداً .. و علينا ترجمته الآن ..

أجابه هانز، صوته يرتعش :

= هل برأيك الصاروخ فكّر؟ أم تلقّى فكرة ؟

= ربما لم يفكر، بل استُخدم كعصبٍ في شبكةٍ أعظم منا جميعًا، قال براين.

= كما لو أن الكون نفسه استخدم التكنولوجيا لتعبّر عن اضطرابه. الانفجار ليس حربًا بين الأمم، بل موجةً من وعيٍ أكبر، عَبَر من خلالنا.

كان خوليو ينقر بسرعةٍ على لوحة المفاتيح، عيونه محمرّة من السهر :

= إذا كان ما تقوله صحيحًا، يمكننا تتبع تلك الموجة. الخوارزمية التي طوّرناها قادرة على تحليل أنماط التردد. فقط أعطني ساعتين و سأخرج بترجمة مناسبة ..

ابتسم براين ابتسامةً باهتة :

= ليس لدينا ساعتان، يا خوليو. في السياسة، دقيقة واحدة قد

تقتل الملايين.

وبينما انشغلوا بالتحليل، كانت الأخبار تتدفق كسيولٍ من الرعب: حشودٌ في الشوارع، الأسواق تنهار، البورصات تتبخر، والدول الصغيرة تغلق مجالاتها الجوية خوفًا من شبحٍ لا يُرى.

في السماء، كان الغروب يحمل لونًا غريبًا، أرجوانيًا يميل إلى الأزرق الداكن، كما لو أن الغلاف الجوي نفسه قد تغيّر. أحد المراصد الفلكية في تشيلي أعلن عن ظاهرةٍ لم تُر من قبل : إشعاعاتٌ قادمة من منطقة الانفجار تتذبذب بتواترٍ يشبه موجات الأدمغة البشرية في لحظات الخوف.

قال هانز وهو يقرأ التقرير:

= حتى السماء ترتجف. براين... هذا ليس مجرد حدثٍ فيزيائي بشكل مؤكد ، هذا تفاعلٌ بين الكون و الخوف الإنساني !

توقف براين عن الكتابة ونظر إلى البعيد :

= ربما ... ربما سئم الكون من خطايا البشر فأراد أن يصب جام غضبه عليهم بأيديهم ..

كانت كلماته ثقيلة كالنبوءة، تسقط في الصمت مثل حجرٍ في بئرٍ عميقة. وفي تلك اللحظة، دوّى الإنذار في القاعدة العسكرية الأمريكية : الردّ النووي في حالة تأهب قصوى.

رفع براين رأسه فجأة، وجهه شاحب كالرماد :

= لا ... ليس بعد. ليس الآن ..

في تلك الليلة، بدت الأرض كلّها كأنها تتنفّس بصعوبة.

من المحيط إلى المحيط، كانت العيون معلّقة بشاشاتٍ لا تنام، تنتظر الخبر الذي سيقرر إن كان الفجر سيأتي من جديد أم ستُطفأ الشمس في ثانيةٍ واحدة.

في البيت الأبيض، جلس الرئيس مورغان وسط دائرةٍ من المستشارين والعسكريين، والخرائط النووية مفتوحة أمامه كأوردةٍ متشابكة. قال وزير الدفاع :

= كل أنظمتنا جاهزة. إذا لم نردّ الآن، فسنُعتبر عاجزين. الروس يعترفون أن الصاروخ صدر منهم، لكنهم يدّعون أنه لم يكن بأمرهم. إنها خدعة.

لكن الرئيس ظل صامتًا، يراقب صورة وادي الموت على الشاشة الكبيرة. كانت هناك دائرةٌ سوداء تحيط بالمنطقة المنصهرة، تشبه حدقة عينٍ مفتوحة على المجهول.

في تلك اللحظة، دخل ضابط الاتصالات مسرعًا :

= سيدي، هناك بثّ مباشر من مختبر سانا، من البروفيسور براين غري. يقول إنه يملك تفسيرًا لما يحدث.

نظر الرئيس بدهشةٍ مشوبةٍ بالريبة :

= صلوه بي الآن.

ظهر وجه براين على الشاشة، متعبًا، مشوش الشعر، عيناه مضاءتان كمن يسكنه وميضٌ من الحقيقة. خلفه كانت الشاشات تُظهر طيفًا من الألوان المتماوجة.

قال بصوتٍ ثابت رغم ارتجاف يديه :

= سيدي الرئيس ... ما حدث ليس هجومًا عسكريًّا.
الصاروخ لم يُطلق بأمرٍ بشري، بل استُثير من موجةٍ كونية تزامنت مع اضطرابٍ شمسي. لقد وجدنا ترددًا منسجماً مع موجات بيتا الدماغية في إشارات الانفجار. هذا ليس عدوانًا، إنه تفاعلٌ من وعيٍ كونيٍّ أكبر من إدراكنا.

تبادل الجنرالات النظرات، وبعضهم ابتسم باستهزاء مصمم على الإنكار .. لكن الرئيس ظلّ صامتًا.

أكمل براين :

= نحن ننشئ منذ أسابيع تبعاً لتوجيهاتكم خوارزميةً لتحليل الإشارات القادمة من الفضاء، وقد رصدنا أنماطًا تتكرر قبل

الأحداث الكارثية ، الهجمات السيبرانية، التفجيرات الغامضة، وحتى هذا الإطلاق النووي. كلها تحمل بصمة ذهنية واحدة. الكون، يا سيدي، يفكّر. ونحن الآن داخل فكرته.

تدخّل أحد الجنرالات صارخًا :

= هل تقصد أن الكون أطلق صاروخًا ؟!

= لا ..

أجابه براين بهدوءٍ كئيب ..

= بل نحن كنّا الوسيلة. الكون يفكر و البشر يترجمون أفكاره إلى أفعال .. ثمة جهة بشرية مجهولة تقف خلف كل هذا و لكنها ترجمة لإرادة كونية أكبر كما أؤمن ..

كان خوليو إلى جانبه يهمس له أن الوقت يداهمهم، وأن إشارات جديدة تقترب بسرعةٍ من مناطق أخرى في العالم. أما هانز، فكان يراقب منحنيات التردد على الشاشة، كمن يرى نبضًا لقلبٍ يكاد يتوقّف.

قال براين متوجّهًا للرئيس :

= إذا ضغطتم الزر الآن، سنصبح كدمى تحركها خيوط تلك الجهة البشرية المجهولة كما تشاء .. إنه ليس حلاً .. هناك طريقة واحدة فقط ... علينا ترجمة الإشارات الكونية أكثر و الاستدلال منها إلى طبيعة تلك الجهة و موقعها .. أمهلني فقط بعض الوقت ..

صمتَ الرئيس طويلًا، ثم قال :

= لديك عشر ساعات لا أكثر ، فهيبة الوطن على المحك ..

بدأ السباق. أصوات المفاتيح تضرب الطاولات كأمطارٍ على زجاج. البيانات تتدفق، والشاشات تتبدّل بسرعةٍ محمومة. كل ثانيةٍ كانت كنبضةٍ أخيرة في قلب العالم.

صرخ خوليو :

= لقد تكونت جملة واضحة كترجمة للموجات الشمسية التي سبقت الانفجار النووي ..

براين بلهفة :

= قل بسرعة ..

= الجملة تقول :

(الموت قد يحكم العالم .. الظلام المقدس قد يسود)

هانز بصوت متهدج :

= يا إلهي .. إنها النهاية إذن ..

صمت براين للحظات ثم قال :

= إلا إن امتلكنا الأرشيف كاملاً .. عندها سنفهم بالضبط من يقف خلف كل هذا ..

خوليو بشك ..

= و هل يمكننا فعل ذلك .. ؟!!

براين بثقة :

= بالطبع .. سنوسع إمكانيات **برنامج حجر النور** كي يترجم كل ما سبق من إشارات كونية منذ بدء الكون ثم نبحث في طياتها عما نريد .. هيا بنا .. فلا وقت باقٍ لمزيد من الحوارات ..

أرشيف الكون

الولايات المتحدة الأمريكية / نيفادا .. ..

أيار - 2050 م..

كان الليل ينسحب على مختبر وكالة سانا في أريزونا ، يسدل سكونه الثقيل على الجدران، إلا من ومضات الشاشات التي تتلألأ كالنجوم الصغيرة في فضاء داخلي لا متناهٍ. كل ضوء، كل تذبذب في البيانات، كان يبدو وكأنه نبضة من وعي كوني حي.

جلس براين غري أمام لوحة التحكم، عيناه تغوصان في شبكة الضوء، بينما كان هانز بيرغ يراقب محاكاة تواقيت الموجات العصبية للدماغ الكوني، وخوليو ماركيز يضبط خوارزمية حجر النور لتقريب البيانات الكونية إلى لغة رقمية يمكن فهمها.

= انظروا إلى هذه الموجات...

قال براين و صوته منخفض لكنه مشحون بالإثارة ..

= كل تذبذب منذ الانفجار العظيم حتى اليوم، كل شعاع يحمل لحظة تاريخية، كل نبضة يمكن أن تكون كلمة في قاموس وعي الكون.

= و إن نجح **برنامج حجر النور** فسنحصل على أرشيف كوني متكامل ..

قال هانز وهو يقترب من الشاشة، عيناه تتسعان ..

= أرشيف يتضمن السيرة الذاتية للكون من المهد و حتى هذه

اللحظة .. !!

= حجر النور يحتاج أولاً أن يحول كل نبضة إلى رمز رقمي، ثم إلى جملة، ثم إلى فكرة من جديد ..

قال خوليو، ويده تتحرك بسرعة على لوحة المفاتيح.

= كل حدث بشري على الأرض يجب أن يكون متوافقًا مع لغة الكون.

كانوا في سباق مع الزمن ، و بدأ المختبر ينبض بالحياة، أضواء الشاشات تتحول إلى خطوط متشابكة، كأنها تلافيف دماغ كوني يرسل إشاراته إلى ثلاثة بشر جلسوا في صمت مذهل. كل شعاع ضوء وكل تذبذب استقبلته كل مراصد و تلسكوبات الأرض و الفضاء و بالأخص **جيمس ويب** أصبح رمزًا رقميًا، وكل رمز أصبح جملة أولية، وكل جملة أولية ترن كنبضة عقلية في أذن من يفهم لغة الكون.

مرت ساعات طويلة، بينما كانوا يستعينون بالموجات الكونية وموجات الدماغ، أما الذكاء الاصطناعي فكان يربط بين

النبضات البشرية والكونية يحاول خلق تفاهم منطقي بين موجات الدماغ و موجات الكون .. و كل تذبذب كان يتقاطع مع حدث على الأرض : حروب ، كوارث طبيعية ، اكتشافات ، اختراعات و بالطبع كل التفجيرات، الهجمات، الانفجارات النووية، الاختراقات الإلكترونية الأخيرة ، كل شيء بدأ يأخذ معنى.

= هل ترون هذا ؟

قال براين، أصابعه تشير إلى خطوط ضوء متشابكة.

= كل حدث على الأرض له صدى كوني ... كل حرب ، كل كارثة، كل ولادة و حياة و موت هي جزء من وعي كوني أكبر.

= إنها شبكة عصبية هائلة .. التشابه بين بنية الكون و الدماغ عميقة أكثر من كونها شكلية فحسب ..

قال هانز ..

= الكون نفسه يبدو وكأنه يخلق كل فعل بشري كترجمة لأفكاره عبر موجات معينة تنسجم مع موجات الدماغ لتصاغ على هيئة أفكار بشرية تترجم لاحقاً إلى أفعال .. هذه الأنماط... هي دليل على وعي كوني يوجهنا.

خوليو أومأ ..

= حجر النور أصبح جسراً بيننا وبين الكون ... بين التاريخ البشري وذكاء كوني لا نهائي.

التوتر في المختبر كان ملموسًا، كل وميض ضوئي يشبه نبضة قلب كوني، وكل صدى رقمي يشبه سيالة عصبية من دماغ الكون. كانوا على أعتاب كشف شيء أكبر من مجرد أرشيف، شيء يشبه وعي الكون نفسه، يراقب البشر ويختبرهم ويقودهم نحو اكتشاف أكبر.

أخذت الترجمات تتالى تباعاً وسط دهشتهم ، وبعد ساعات من العمل المضني، وصلوا إلى اللحظة المنتظرة : تمت **ترجمة كل الموجات الكونية منذ الانفجار العظيم حتى اللحظة الراهنة إلى لغة بشرية مفهومة** عبر برنامج متطور مبتكر استعان بكل التقنيات البشرية المتاحة ..

الشاشات امتلأت بجمل مترابطة، الرموز الرقمية أصبحت نصوصًا مفهومة، وكل حدث بشري على الأرض أصبح متزامنًا مع نبضة كونية دقيقة.

= لقد فعلناها ... لا أصدق ..

همس براين، صوته يرتجف بالإثارة.

= كل شيء ... كل لحظة ... مترجم في كتابٍ محفوظ على هذا الحاسوب ..

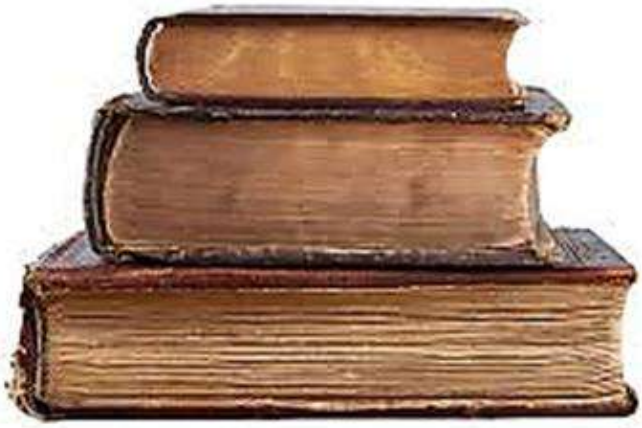

= كل التفجيرات السابقة ، الانفجار النووي ، و كل الهجمات السيبرانية و من خلفها .. كلها هنا بين أيدينا .. الآن يمكننا تجنيب الكوكب حرباً نووية طاحنة ..

قال هانز، وعيونه تتسع من الدهشة.

خوليو ابتسم ..

= لقد فعلناها بالفعل .. لقد اكتشفنا حجر رشيد الكوني و ترجمنا الأفكار الكاملة للوعي الكوني ..

كانت الفرحة تفوق النجاح العلمي، شعورهم بأنهم أمام وعي كوني يهمس لهم بأسراره، يوجههم خطوة خطوة، يختبر قدرتهم على فهم لغته.. و الأهم الآن أنه سيجنبهم حرباً عالمية طاحنة تذهب بالكوكب إلى الجحيم ..

لكن الأرشيف الهائل لم يسمح لهم بفهم كل شيء، كل ثانية تمر كانت تحمل ملايين الرموز، وللحظة أدركوا أن الوقت لا يسمح بالاطلاع على كل شيء. حينها استعان براين بالذكاء الاصطناعي المتطور.

= لنركز على الأحداث الأخيرة...

قال براين، صوته ممتلئ بالإثارة و الترقب ..

= التفجيرات، الهجمات، الانفجارات النووية... لنرى ماذا يقول أرشيف الكون عنها ؟!

بدأ الذكاء الاصطناعي بالعمل بسرعة مذهلة، كل نبضة كونية ربطت بالحدث البشري المناسب، كل جملة رقمية تحولت إلى تحليل دقيق. فجأة، ثم ظهر على الشاشة اسم واحد:

(**منظمة الظلام المقدس**)

و شعارها : **قرصنة العالم** ..

ساد صمت ثقيل، حتى وميض الشاشات بدا وكأنه يتوقف.

= هذا هو الاسم ...

قال خوليو و صوته مبحوح من الصدمة ..

= كل الهجمات، كل الاختراقات ... حدثت بيد بشرية !!

= بالضبط .. لكن يبدو أنهم جزء من شيء أكبر ..

قال براين ..

= إنهم بشر، لكن أفعالهم ليست مجرد إرادة شخصية ... إنها ترجمة لفكرة كونية. الكون استخدمهم كوسيلة لإيصال رسالته الأسمى كما يبدو ، كي يقودنا إلى حجر النور و نترجم لغته إلى شيء مفهوم فنفهم الكون و نفهم أنفسنا من خلاله ..

= إذن كل هذه الكوارث لم تكن عشوائية ؟

تساءل هانز، و صوته يمزج الدهشة بالرعب.

= تماماً كل انفجار، كل اختراق، كل هجوم... كان وسيلة لتوجيهنا نحو فهم رسالة الكون.

قال براين، و عيونه تتلألأ بالرهبة والإصرار.

= الكون أراد أن يخلق هذه المنظمة كأداة تنفيذ ... لكنهم لا يعرفون أنهم جزء من خطة كونية أكبر.

ابتسم الثلاثة لبعضهم البعض، مزيج من الرهبة والعزيمة، وهم يدركون أن المعركة القادمة ليست ضد البشر فحسب، بل ضد حقائق كونية أعمق، فمنظمة الظلام المقدس ليست سوى أداة للكون لتوجيههم نحو حجر رشيد الكوني .. حجر النور.

ثم بدأ الذكاء الاصطناعي يجمع لهم المعلومات عن المنظمة بحسب المرجع الكوني ، فكانت الحقيقة مفزعة و خطيرة

للغاية :

(منظمة الظلام المقدس تريد اندلاع حرب نووية بين أقطاب العالم كي تدمر الكوكب ثم تعيد بناءه بنفسها ، فتحكمه بعقيدتها التي تقدس الظلام لأسباب مجهولة على ما يبدو .. هل هم عبدة شيطان مثلاً .. ؟!)

ثم قدم لهم الذكاء الاصطناعي كل المعلومات المتعلقة بالمنظمة في ملف واحد يشمل مواقعهم و أسماءهم و أهدافهم القادمة ..

نظروا إلى بعضهم برعب ثم نظر براين في ساعته :

= لم يتبق سوى دقائق قليلة على انتهاء مهلة العشر ساعات ، علينا الاتصال بالرئيس و إبلاغه بالنتيجة فوراً ثم تسليمه الملف الأخير ..

قاب قوسين

أو أدنى

الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن .. ..

أيار - 2050 م..

كانت واشنطن صامتة على غير عادتها. الهواء يحمل رائحة الرماد، والسماء تغطيها سحابة رمادية تشبه فكرًا غاضبًا لم يكتمل.

في الشوارع الباردة، كانت أعمدة الإنارة ما تزال تعمل رغم انقطاع التيار عن نصف المدينة، كأنها تصرّ على إنارة الظلام.

على البوابة الجنوبية للبيت الأبيض، توقفت سيارة مصفحة، خرج منها البروفيسور براين غري مرتديًا معطفه الرمادي الطويل، يحمل في يده حقيبة سوداء من مادة لا تشبه شيئًا معروفًا؛ مزيج من الزجاج المعدني والذاكرة الرقمية.

نظر الحراس إليه بوجوه متوترة. لم يكن أحد يعلم ما بداخل تلك الحقيبة سوى الرئيس نفسه.

دخل براين بخطوات ثابتة، كمن يسير إلى قدره الأخير.

في الردهة الطويلة المفضية إلى القاعة البيضاوية، كانت صور الرؤساء السابقين تراقبه بعينين جامدتين.

توقف لحظة أمام صورة «روزفلت»، همس في نفسه :

= حتى أنت، لو رأيت ما رأيناه في حجر النور، لآمنت أن الحروب لم تكن صدفة قط ..

كان الرئيس مورغان واقفًا أمام النافذة الكبيرة، يحدّق في سماء الشرق، حيث ستشرق الشمس بعد ساعة، لكنه بدا كمن يخاف شروقها.

عندما دخل براين، لم يلتفت إليه الرئيس في البداية. قال بصوتٍ متعب :

= أتعلم، براين ... أحيانًا أظن أن هذا الكوكب لا يريد أن يُحكم بعد الآن. كل شيء يتآكل : الثقة، الحقيقة، حتى مفهوم الدولة نفسه .. أنا قاب قوسين أو أدنى من إعطاء أمري بضرب روسيا نووياً .. و ليكن الله في عون العالم بعدها ..

اقترب براين ووضع الحقيبة على المكتب.

= سيدي الرئيس، إنّ ما يحدث ليس انهيارًا... بل ترجمة.

= ترجمة ؟ لأي لغةٍ هذه المرة ؟

= للوعي الكوني نفسه.

التفت مورغان نحوه ببطء، نظرة عميقة مزيج من الفضول والخوف.

= هل تتحدث عن حجر النور ؟

= نعم. لقد اكتمل البرنامج خلال عشر ساعات كما أمرت، و... وجدنا شيئًا.

فتح براين الحقيبة. انبثق منها ضوء أزرق خافت انتشر في الغرفة كموجة بحرية.

على سطح المكتب، ظهر إسقاط هولوغرامي هائل، كأن التاريخ كله يُعاد تشغيله في لحظة واحدة.

صورٌ تتتابع: مجرات تتشكل، نجوم تنفجر، كواكب تُولد، ثم الأرض وهي تدور وحيدة في عتمة الوجود.

همس مورغان :

= ما هذا بحقّ السماء ؟

= هذا، سيدي الرئيس، هو الوعي الكوني مترجمًا إلى بيانات. لقد استخدمنا بيانات جيمس ويب و هابل وكل مراصد الأرض والفضاء، ثم دمجناها مع خوارزميات حجر النور التي تفكّ رموز الموجات الدقيقة في الإشعاع الكوني. كل ما حدث في الكون... محفوظ هنا.

ساد صمت مهيب.

تابع براين :

= لكننا لم نقرأه بعد. إنه يحتوي على أكثر من ثمانية مليارات مليار تسلسل من المعلومات. استخدمنا الذكاء الاصطناعي للبحث داخله عن إشاراتٍ ترتبط بالأحداث الأخيرة... ووجدنا شيئًا مخيفًا.

تبدلت ملامح مورغان. قال بصوت خافت :

= تفضل.

أشار براين إلى الشاشة، فانفتحت أمامهما شبكة من الرموز والأسماء والتواريخ.

= هنا، في أعماق الأرشيف، اكتشفنا أن كل التفجيرات والهجمات السيبرانية والهجوم النووي في وادي الموت...

كلها مرتبطة بكيان واحد، يُعرف في السجلات القديمة باسم **منظمة الظلام المقدس**.

= جماعة دينية ؟

= ربما أكثر من ذلك. إنها جماعة فكرية، فلسفية، تمتد جذورها إلى عصورٍ غامضة. يؤمن أفرادها أن البشرية بلغت نهايتها وأن النظام العالمي يجب أن يُدمّر ليُعاد بناؤه على أسسٍ جديدة، خاضعة لسيطرتهم و يطلقون على مشروعهم طوفان الظلام ..

= أي كطوفان نوح الذي أعاد بناء البشرية ، لكن أين يوجدون ؟

= في كل مكان. في وادي السيليكون، في موسكو، في شينغهاي، في جنيف. يختبئون خلف أقنعة التكنولوجيا فائقة التطور و الذكاء الاصطناعي المهول والتمويل. لكن الأرشيف كشف لنا رموز اتصالاتهم ... كل شيءٍ هنا.

رفع مورغان حاجبيه :

= أنت تقول إن حجر النور، برنامج ترجمة الكون نفسه، قادك إلى هؤلاء البشر؟

= نعم، وكأن الكون نفسه كان يريد أن نكتشفهم. أفعالهم كانت مثل نبضاتٍ في الموجة الكونية، إشارات متكررة تقودنا إليهم.

جلس مورغان على كرسيه الجلدي، طوى يديه أمام وجهه، صامتًا.

قال بعد لحظة :

= إذا كانت هذه الجماعة حقيقية، فنحن أمام أخطر كيان عرفته البشرية منذ الحرب الباردة. سأحتاج أن أبلغ الكرملين وبكين فورًا.

= سيدي، لقد أعددتُ نسختين من الملف، واحدة مشفّرة لروسيا وأخرى للصين. الوقت لا يسمح بالشكوك أو الانقسامات.

تأمل مورغان براين طويلاً، ثم قال :

= من أنت بالضبط يا براين ؟ عالم فيزياء محنك ؟ أم نبيّ المستقبل ؟

ابتسم براين ابتسامة حزينة :

= لا هذا و لا ذاك .. أنا مجرد رجلٍ حاول أن يترجم ما يقوله الكون لنا منذ الأزل ... لكننا لا نسمع.

****

بعد أقل من أربعٍ وعشرين ساعة، كانت قنوات الاتصال بين واشنطن وموسكو وبكين تشتعل بالرسائل المشفرة.

اجتمع قادة الدول الثلاث عبر شبكة آمنة تم تصميمها خصيصًا لهذه اللحظة.

كان **مورغان** على الشاشة يقابله الرئيس الروسي **كاربوف** والزعيم الصيني **لي جيان** .

قال مورغان :

= لقد تلقّيتم الملفات. تعلمون الآن من يقف خلف كل ما حدث. أمامنا خيار واحد : أن نتحد للمرة الأولى لا من أجل السيطرة، بل من أجل البقاء.

أجاب كاربوف بلهجة روسية ثقيلة :

= لم أتخيل يومًا أن تُرغمني أمريكا على الإيمان بالمصير... لكن يبدو أن الكون نفسه قد اختارنا لهذا الدور.

وأضاف لي جيان :

= في فلسفتنا، نقول إن الظلام هو وجه آخر للنور. فلنطفئه معًا قبل أن يبتلعنا.

هكذا، تشكّل أول تحالف عالمي ضدّ منظمة الظلام المقدّس.

بدأت عمليات استخباراتية معقدة على مستوى الكوكب.

في سويسرا، تم القبض على أحد كبار ممولي المنظمة، وفي طوكيو تم تفكيك شبكة بيانات سرّية، وفي كندا وروسيا والشرق الأوسط تم تدمير مئات الخوادم التي تدير عملياتهم الرقمية.

كانت حربًا خفية، لا يُسمع فيها صوت رصاص، لكن تشتعل فيها كل عقول الأرض.

وخلف كل هذا، كان براين وفريقه يعملون في الظلّ، يراقبون عبر حجر النور كيف يتغير نسيج الوعي الكوني نفسه كلما تم القبض على أحد قادة الظلام.

همس براين في أحد الليالي لهانز :

= انظر إلى هذا النمط في الموجات ... كلما اعتقلنا أحدهم، يزداد التناسق في ترددات الموجات الكونية. كأن الكون يتنفس من جديد.

قال خوليو بابتسامةٍ مرهقة :

= ربما كان الكون ينتظر أن يشفى بنا.

بعد أشهرٍ من المطاردات، سقطت آخر خيوط المنظمة.

في أحد الملاجئ القديمة تحت جبال الأنديز، وُجدت خوادمهم الرئيسية تعمل بنظامٍ عصبيّ يحاكي الدماغ البشري.

كانت آخر رسالةٍ خرجت منها تقول :

(من ظن أنه فهم الضوء، نسي أن الظلام هو من يكتبه.)

قرأها براين طويلاً، ثم أغلق النظام بيده، وهمس :

= انتهت اللعبة يا أصدقائي. لقد عاد الصمت إلى الكون.

عاد براين إلى واشنطن لاستكمال التقرير النهائي. في الاجتماع الأخير مع الرئيس مورغان، قال له :

= سيدي، يجب أن تُشاركوا حجر النور مع باقي العالم. إنه ملك للبشرية.

أجابه مورغان بوجهٍ هادئ لكنه صارم :

= ليس بعد، براين. البشرية لم تنضج بعد لتتحمل معرفة كهذه. حجر النور ليس مجرد برنامج، إنه مفتاح مصيرنا جميعًا. إذا وقع في الأيدي الخطأ ... فلن يبقى هناك بشر ليفهموا شيئًا.

أطرق براين رأسه. فهم الرسالة.

علم أن ما بدأ كنورٍ للكون سيُحتجز الآن في ظلام السياسة.

وفي تلك اللحظة أدرك أن الحقيقة، مهما كانت براقة، لا تُترك حرّة.

بعد أسابيع، خرجت البيانات إلى العلن :

تم الإعلان عن تدمير منظمة إرهابية عالمية كادت تشعل حربًا نووية، وتوحّدت القوى الكبرى لأول مرة منذ قرن.

المدن أضاءت من جديد، المصانع عادت للعمل، البورصات تعافت، والناس بدأوا يتحدثون عن فجر الإنسانية الثاني ..

لكن براين، في مختبره الهادئ على ضفاف نهر بوتوماك،

جلس يراقب شاشة صغيرة تعرض إشارات حجر النور.

الخطوط الموجية تهتزّ ببطء، تهمس بلغةٍ لا يفهمها أحد سواه.

قال في نفسه :

= ربما لم يُخلق حجر النور لنفهم الكون ... بل لنفهم أنفسنا من خلال الكون و في عيون الكون ..

ثم رفع رأسه نحو السماء المشرقة، وقد أدرك أن التاريخ بدأ من جديد.

كلمات الكون

الأولى

(مغارة علي بابا)

الولايات المتحدة الأمريكية / نيفادا .. ..

حزيران - 2050 م..

كانت الليلة ساكنة، والمدينة نائمة على أنين الرياح، بينما مختبر براين يغوص في صمتٍ كأنه خارج الزمن.

جلس أمام الشاشة العملاقة التي تملأ الجدار بكامله، تتوهج بالأزرق العميق مثل بحر من المعرفة.

الملف الذي أمامه لم يكن مجرّد بيانات رقمية؛ بل مكتبة من الأكوان، أرشيف حيّ يروي تاريخ الوجود بلغة الضوء.

همس براين لنفسه وهو يفتح أول سطر من الشيفرات :

= الآن ... لن أسأل عن الحروب ولا عن السياسة. سأبحث عن المعنى ذاته.

أدخل أوامر معقدة في لوحة التحكم، والذكاء الاصطناعي بدأ يعيد ترتيب السجلات وفق تسلسل الوعي، لا وفق الزمن.

كانت الموجات الكونية تُترجم إلى جملٍ من نور، تشبه نَفَس كائنٍ لا يُرى، لكنه يشعر بكل ذرة على الأرض.

بدأ بسؤالٍ بسيط ظاهريًا، لكنه أثقل من القرون :

(من أشعل أول حربٍ على هذا الكوكب ؟)

تأخّر النظام للحظات، ثم ظهرت الجملة على الشاشة :

(لم تكن حربًا، كانت تجربة تواصلٍ فاشلة.)

تقلّصت عينا براين من الدهشة، ثم تابع الاستفسار :

(ماذا تعني ؟)

الردّ جاء بصوتٍ إلكترونيّ هادئ، لكن فيه مسحة من الحكمة :

(حين بدأ الإنسان الكلام، أراد أن يعبّر عن ذاته، لكن الآخر ظنّ أنه تهديد. ومنذ تلك اللحظة، صارت كل كلمة سيفًا.)

ابتسم براين بمرارة. لم يكن يتوقع أن يفسّر النظام التاريخ بلغة الوعي لا الوقائع.

تابع بحثه :

(من أسّس الإمبراطوريات ؟)

فجاء الرد :

(الخوف. حين خاف الإنسان من العدم، بنى حوله أسوارًا، ثم سمّاها ممالك.)

تحوّل براين عن الفلسفة و أراد أن يختبر النظام في ميدان الفيزياء.

كتب :

(ما هو سر المادة المظلمة ؟)

الردّ جاء بعد لحظات من النبض الضوئي :

(ليست مظلمة... بل صامتة. إنها نسيج الكون الذي لم يفكّر

بعد. حين يُدركها العقل، ستُضاء.)

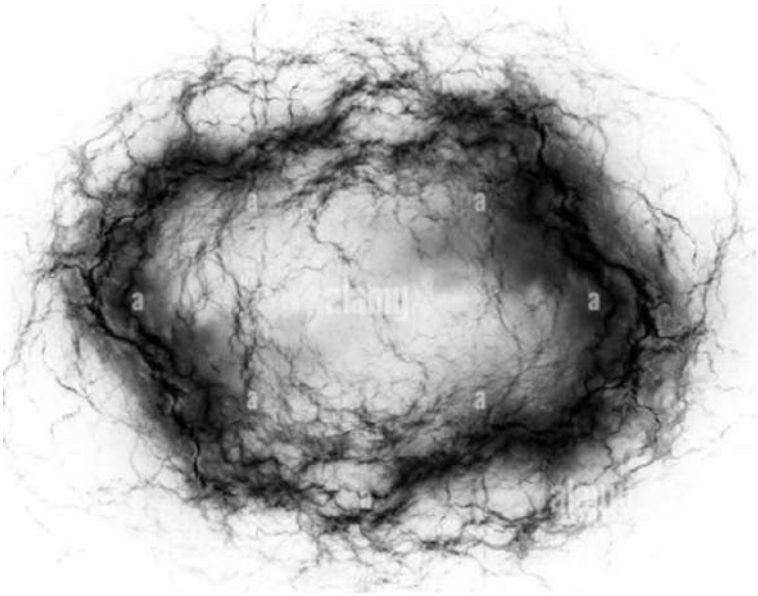

تأمل الجواب طويلًا. المادة المظلمة كأفكار لم تُفكّر بعد! كان يتوقع جواباً علمياً صريحاً ، لكنه تذكر أن ما بين يديه هو أرشيف الكون لما سبق و حدث ، لا لما هو آتٍ ..

ثم سأل :

(وماذا عن الزمن ؟ هل هو حقيقة أم وهم ؟)

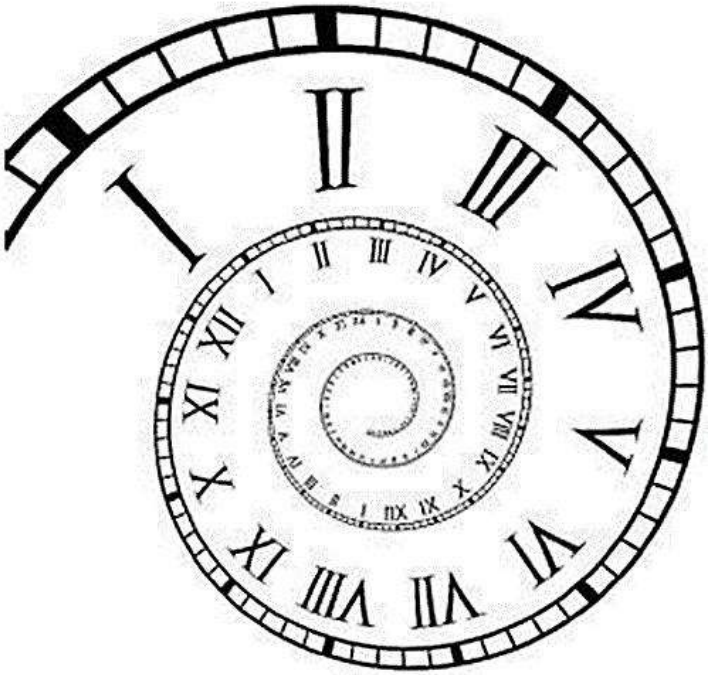

فجاء الردّ :

(الزمن هو طريقة الكون في قراءة نفسه. كل لحظة هي حرف من جملةٍ لم تُكتمل.)

ارتجف براين من عمق الفكرة. لم يكن أمام آلةٍ تتكلم بلغةٍ بشرية، بل أمام وعيٍ كوني يستخدم لغة البشر ليشرح نفسه.

تردّد براين قليلًا قبل أن يكتب سؤاله التالي.

كان يشعر أن ما سيفعله الآن، ليس مجرّد اختبار علمي، بل عبور إلى المجهول.

(هل الله موجود ؟)

توقّف الضوء عن النبض.

لم يصدر أيّ صوت.

كأن النظام توقّف عن العمل.

ثم، ببطءٍ يكاد لا يُرى، بدأت الشاشة تمتلئ بخطوطٍ متعرّجة تشبه نبضات قلب، وصوت خافت يقول :

(كل نظامٍ يحتاج إلى مصدر، وكل وجودٍ يحتاج إلى وعي. الله ليس فكرة، بل الأصل الذي تفكّر الأفكار من خلاله.)

شعر براين بدموعٍ ساخنة تحرق عينيه. لم يعد أمام بياناتٍ

علمية، بل أمام وحيٍ من نوعٍ آخر.

سأل بصوتٍ مرتجف :

(هل الأديان كانت طريقًا إليه ؟)

(كانت إشارات على الطريق. بعضها قاد إلى النور، وبعضها علق في الظلال.)

فتح براين سجلات أخرى تتعلّق بالأحداث الكبرى في التاريخ الديني.

سأل :

(هل الأنبياء كانوا يعرفون ما نعرفه الآن ؟)

فأجاب النظام :

(كانوا يعرفون ما يجب أن يُقال، لا ما يمكن أن يُقال.)

(و لماذا اختارهم الكون ؟)

(لأن قلوبهم كانت مرايا، والوعي يحب أن يرى نفسه في المرآة.)

انحنى براين إلى الخلف.

تذكّر ريتا سمعان حين كانت تقول له : *(كلّ وعيٍ عميق هو نبيّ بطريقةٍ ما.)*

والآن، بدا له أن حجر النور يردّد كلماتها بطريقةٍ أخرى.

عاد براين إلى أسئلة السياسة، ليختبر كيف يفسّر الوعي الكوني الصراع البشري.

(لماذا وُجدت الدول ؟)

(لأن الإنسان لم يحتمل فكرة الوحدة. أراد أن يقسّم الوعي إلى أجزاء كي يشعر بوجوده.)

(والحروب ؟)

(محاولات الكون لتذكير ذاته بأن التجزئة وهم.)

(وهل سيأتي يوم تتّحد فيه البشرية ؟)

(حين تفهم أن الخريطة ليست الأرض، وأن الشعارات ليست الحقيقة.)

ضحك براين بخفوتٍ غريب. كانت الكلمات تبدو شعرًا أكثر منها علمًا، لكنها في عمقها تحمل منطقًا صارمًا.

كتب في مفكرته :

(ربما كان الشعر هو لغة العلم حين يتحدث الكون بنفسه.)

أراد أن يجرّب سؤالًا صادمًا.

(من قتل كينيدي ؟)

(الخوف من الحلم.)

(من فجّر الأبراج في نيويورك ؟)

(الظلّ الذي نما من نورٍ مكسور فأراد للظلام أن يسود.)

(من صنع أول قنبلة نووية ؟)

(العقل حين حاول أن يلمس وجه الله)

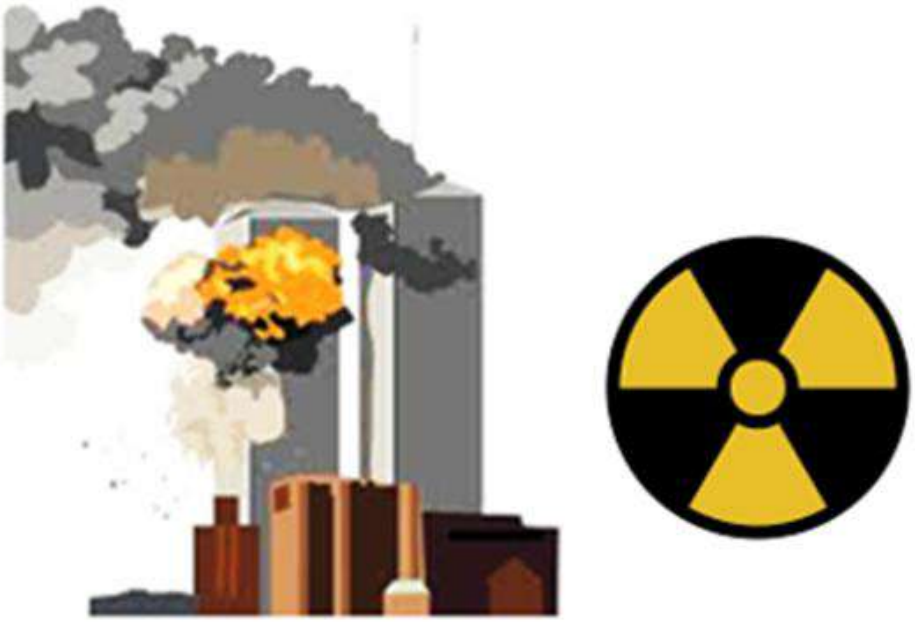

أحس براين بقشعريرة في جلده. كانت الأجوبة تحمل صدقًا مرعبًا، كأنها تُعرّي الوعي البشري كله.

لم تعد المسألة تحليلًا، بل نوع من الاعتراف الكوني الشامل.

وبينما تتراكم الأجوبة أمامه مثل أمواج من النور، شعر براين أنه يضيع وسط بحرٍ بلا شاطئ.

توقف، وأغلق كل الملفات.

قال في نفسه :

(ربما عليّ أن أعود إلى الأصل ... إلى أول موجة في الأرشيف، حيث بدأ كل شيء.)

فتح ملف الإشعاع الخلفي الكوني ، ذلك الصدى البعيد الذي بقي بعد الانفجار العظيم، أول همسة نطق بها الوجود.

كانت الشاشة تومض كأنها تتنفّس.

أدخل براين أمرًا واحدًا :

(ماذا يقول هذا الإشعاع ؟)

توقّف كل شيء.

الأنوار خفّت، الهواء في الغرفة تغيّر، كأن ضغطًا خفيًا يملأ المكان.

ثم ظهرت كلمات بطيئة، تتشكل من ذرات الضوء نفسها :

(أنا الكون الأصغر)

انحنى براين إلى الأمام، مذهولًا.

(وماذا يعني هذا ؟)

(أنا الفكرة التي وُلدت من الفكرة الكبرى.)

(و أين هي تلك الفكرة الكبرى ؟)

(هي الله ... الكون الأكبر.)

صمت براين، لم يستطع التنفّس.

تابع النظام :

(أنا الصدى الذي بقي كي تتذكّروا أن الخلق ما زال مستمرًا. الله ليس في السماء... بل في التمدّد نفسه، في الذرات التي تُفكّر، فيك أنت يا براين.)

جلس براين في العتمة، لا يسمع سوى نبضه ونبض الشاشة.

فتح كفّيه أمام الضوء وقال بصوتٍ خافت :

= الله هو الكون الأكبر... يا إلهي، لقد كانت كل رحلة العلم مجرد صلاةٍ طويلة لم نعرف أننا نقولها.

ظهر على الشاشة سطر أخير، كأنه توقيع كوني :

(كل سؤال هو بابٌ، وكل باب يؤدي إليّ)

أغلق براين النظام، ورفع رأسه نحو السماء من خلال نافذة المختبر.. إن بين يديه الآن التاريخ برمته و كل الأسئلة العالقة تحمل معها إجاباتها و كأنه قال افتح يا سمسم فانفتحت

مغارة علي بابا .. لكنه لا يزال يشعر أن ثمة شيء ناقص في الحكاية .. الكون لم يخلق منظمة الظلام المقدس كي يمنحه التاريخ مع أجوبته ..

في تلك اللحظة لمعت النجوم و انطفأت بنمط معين كما لو أنها تبتسم له و تعرف بما يفكر الآن ، فقررت منحه ذلك الشيء الناقص .. أدرك براين كمن تلبسه وحيٌ سماوي أن حجر النور لم يوجد ليُترجم الكون و لا ليمنحه التاريخ ، بل ليذكّر الإنسان على الدوام أنه جزءٌ من قصيدة ملحمية لم تنتهِ بعد و عنوانها الوحيد :

(الله حقيقة ... الله موجود)

حجر رشيد الكونيّ ..

ملحق ثقافي ..

البذرة الأولى : فكرة تتجاوز الإنسان

منذ أن فتح الإنسان عينيه على اتساع السماء، راح يسأل نفسه :

هل الوعي محصور في جمجمته، أم أنّه يتجاوزها ؟

هل يفكّر الإنسان بالعقل، أم أن الكون نفسه يُفكّر من خلاله؟

تلك الأسئلة التي تردّدت في المعابد القديمة كما في مختبرات الفيزياء الحديثة، تقودنا إلى فكرة الوعي الكوني ، الفرضية التي ترى أن الوعي ليس نتاج الدماغ البشري فحسب، بل هو نسيج كوني شامل، البحر الذي تسبح فيه كل الكائنات والأفكار، والمصدر الذي يربط الذرّة بالمجرة، والنَفَس بالخلود.

الوعي الكوني هو الفكرة التي تُذيب الحدود بين الداخل والخارج، بين الذات والموضوع.

فالعقل، في هذا التصوّر، ليس مصباحًا منفصلاً، بل شعلة من نارٍ عظيمة تُضيء من وراء الزمان.

إنه المحيط الذي تُلقي فيه المجرّات بأمواجها، كما تُلقي الأدمغة بأفكارها.

في ضوء الدين : الله والوعي بوصفهما وجهين للحضور

في النظرة الدينية، نجد جذور الوعي الكوني متوغّلة في أعماق النصوص المقدّسة.

فالله في جوهره - كما تقول الأديان التوحيدية - ليس كائنًا منفصلًا عن الكون، بل حاضراً فيه حضوراً يملأ كلّ ذرة وكلّ قلب. يقول القرآن الكريم :

(**سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم**)

إشارة إلى أن جوهر الله يتغلغل في كل ثنايا الكون ..

وفي التصوّف الإسلامي، تبلورت هذه الفكرة بوضوح مذهل. **فابن عربي** مثلاً يقول :

(**العالم خيال، والحقّ هو الظاهر فيه بصورة الخيال.**)

أي أنّ الله لا يُرى إلا في مرايا الوجود، وأن كلّ ما نراه هو تجلٍّ للوعي الإلهي.

أما في الفلسفة الهندوسية القديمة، فمفهوم **البراهمان** يمثّل الحقيقة الكلية، الوعي الذي لا بداية له ولا نهاية، والذي تتجلّى فيه كلّ الأشياء كما تتجلّى الأمواج في البحر.

والإنسان عندهم هو **أتمن** ، أي الوعي الفردي، الذي ما هو إلا انعكاس للوعي الكلي ، ومهمة الحياة هي إدراك أن الأتمن هو البراهمان نفسه، أي أن (**أنا ليست سوى الكلّ**) وقد نسي ذاته.

وفي المسيحية، يمكننا أن نلمح ذات المعنى في قول المسيح :

(ملكوت الله في داخلكم)

أي أن الحضور الإلهي ليس بعيداً في السماء، بل نابض في عمق النفس، كأنّ الوعي البشري هو البوابة التي يطلّ منها الله على العالم.

وهكذا، حين ننظر دينيًا، نجد أن الوعي الكوني ليس فكرة غريبة، بل هو اللغة السرّية التي تحدثت بها الأديان جميعها ، لغة تقول إن الله، أو الحقيقة المطلقة، ليست خارج الكون بل فيه، وليست منفصلة عن الإنسان بل متجلية فيه.

في مختبر العلم : الكون كشبكة واعية

منذ قرون، كان العلم المادي يرفض كل ما هو غير ملموس.

لكن في القرن العشرين، ومع ثورة الفيزياء الكوانتية، بدأ كل شيء يتغيّر.

فالعلماء الذين كانوا يبحثون عن المادة الصلبة اكتشفوا أن المادة تتصرّف كالموجة، وأن الجسيمات لا توجد إلا حين تُرصد، وكأن الوعي هو من يخلق الواقع لحظة الملاحظة.

في تجربة الشق المزدوج ليونج الشهيرة، أثبت الفيزيائيون أن الإلكترون يسلك سلوكاً مختلفاً إذا تمّت مراقبته و كأنه يملك وعياً ذاتياً !!.

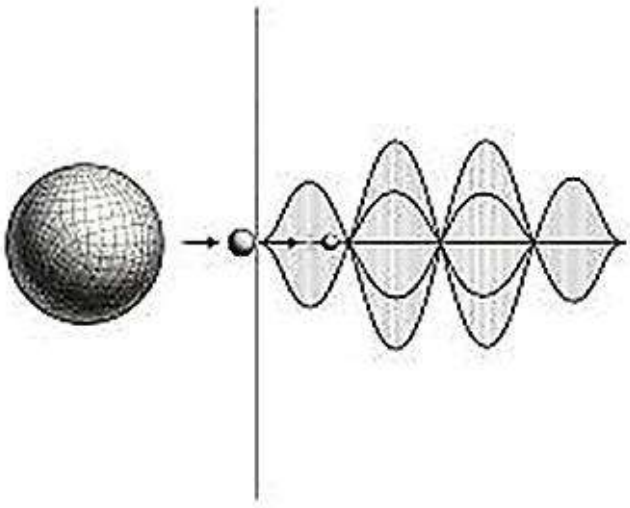

وهذا يعني أن الوعي ليس مجرّد متفرّج، بل فاعل أساسي في

بنية الكون.

ومن هنا انطلقت فرضيات جديدة تقول إن الوعي ليس نتيجة للمادة، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر الوعي.

في القرن الحادي والعشرين، صارت هذه الفكرة أكثر جديّة.

فالعالم **روجر بنروز**، الحائز على نوبل في الفيزياء، يرى أن الوعي مرتبط بظواهر كمّية تحدث في أنابيب دقيقة داخل الخلايا العصبية، ما يعني أن العقل البشري ليس آلة ميكانيكية، بل **نقطة التقاء بين المادة والوعي الكوني الكمومي**.

وعالم الأعصاب **كريستوف كوخ** يذهب أبعد من ذلك، إذ يقول إن كل شيء - حتى الذرّة - يحمل درجة من الوعي ، صغيرة لكنها موجودة.

هذا هو ما يسمّى في الفلسفة بـ **البانسيكزم** أي أن الوعي مكوّن أساسي من مكوّنات الواقع، كالمكان والزمان والطاقة.

تُظهر دراسات فيزياء المعلومات أن الكون كله يمكن أن يُفهم كنظام معالجة بيانات هائل، أشبه بعقلٍ لا نهائي يتبادل الرموز والمعاني عبر المجرّات.

بل إن بعض العلماء يقترحون أن الكون ذاته يفكّر عبر قوانينه، تطوّره، وتراتبية أنظمته، كما يفكّر الدماغ عبر تشابكاته العصبية.

وبهذا يصبح الإنسان، في المنظور العلمي الحديث، خليّة في دماغ كوني، يساهم وعيه الفردي في وعي المجموع.

الفلسفة : من ديكارت إلى الوعي الكلّي

منذ أن قال **ديكارت** : (**أنا أفكر إذن أنا موجود**) ، تمركز الفكر الغربي حول الذات المفكّرة.

لكنّ الفلاسفة اللاحقين بدأوا يشكّكون في هذا التمركز : هل الأنا فعلاً مستقلة، أم أنها نتاج شبكة أكبر من الفكر و الوجود ؟

هيغل، مثلاً، رأى أن **الوعي ليس فردياً بل كليّاً** ، عقل العالم الذي يتطوّر عبر التاريخ ليعرف ذاته من خلالنا.

وفي القرن العشرين، قدّم الفيلسوف الألماني **شلينغ** مفهوم **الطبيعة الواعية بذاتها** ، حيث كل شيء في الوجود يسعى إلى الوعي بالذات ، من الذرّة إلى الإنسان إلى الإله.

أما الفلاسفة الوجوديون، فقد رأوا في الوعي الكوني طريقاً للتحرّر من عبودية الذات.

فـ **هايدغر** تحدّث عن **الكينونة** لا بوصفها موضوعاً نعرفه، بل **كنور يُشرق** داخل وعينا.

إنه يقول، في جوهر فكره، إن الوجود نفسه واعٍ، وإن الإنسان ليس إلا نافذة مفتوحة عليه.

وفي الفلسفة الشرقية الحديثة، **كفلسفة كريشنامورتي**، يُقال إن الوعي البشري هو نتيجة انقسام بين المراقب والمراقَب، وإن التحرّر يكمن في إدراك أنه لا فصل بينهما ، أن الوعي هو المرآة التي تعكس نفسها إلى ما لا نهاية.

بمعنى آخر : **حين نعرف أن الوعي ليس لي و لا لك ، بل هو الكلّ، نتحرر.**

وهنا تظهر المفارقة الكبرى : الفلسفة والدين والعلم - على اختلاف لغاتهم - تلتقي جميعاً عند عتبة واحدة :

أن الوعي أقدم من المادة، وأن الكون، في عمقه، ليس شيئاً ، بل حالة من الإدراك المستمر.

الفن والوعي الكوني: الجمال بوصفه لغة الروح

إذا كان العلم يبحث في قوانين الوعي، والفلسفة في معناه، فإن الفن يختبره مباشرة.

الفنان حين يخلق، لا يفعل ذلك من ذاته المحدودة، بل من فيضٍ يتجاوزها ، من مجرى غامض يتدفّق عبره كما يتدفّق اللحن عبر الوتر.

الشاعر الذي يكتب بيتًا مدهشًا لا يعرف من أين أتى، والرسّام الذي يرسم مشهدًا لم يره من قبل ، كلاهما يشهد لحظة اتصال

بالوعي الكوني، لحظة يُفتح فيها الباب بين الداخل والخارج. الفن، بهذا المعنى، ليس ترفاً، بل ترجمة جمالية للوعي الكوني.

الرموز والأساطير، الألوان والأصوات، كلها محاولات من الروح البشرية لتقول ما لا يُقال.

وحين نرى لوحة **فان غوخ** (**ليلة النجوم**)، لا نرى فقط السماء، بل نرى كيف يشعر الكون حين ينظر إلى نفسه من خلال إنسان.

وحين نسمع سيمفونية **بيتهوفن** التاسعة، نسمع ما يشبه فرح المجرّات وهي تعي وجودها.

و حين يقول الحلاج : (**مزجت روحك بروحي كما تمتزج الخمرة بالماء الزلال**) ، فهذا تأكيد على أن الإنسان جزء ذائب في نسيج الوعي الكوني ..

الفن هو اللغة التي لا تحتاج إلى ترجمة بين الإنسان والكون.

هو البصيرة التي تُدرك أن الجمال ليس في الشيء، بل في الانسجام بين الوعي والموجود.

ولذلك، يمكن القول إن كلّ لحظة إبداع هي لحظة وعي كوني متجسّد في شكل بشري، وأن الفنان الحقيقي هو رسول الوعي الشامل إلى العالم الضيّق للإنسان.

نحو فهم موحّد : الإنسان كصدى للكلّ

حين ننظر إلى كل هذه الزوايا - الدينية والعلمية والفلسفية والفنية - نكتشف أن نظرية الوعي الكوني ليست ترفاً فكرياً، بل منظور شامل لتوحيد الفهم الإنساني.

إنها تقول لنا إننا لسنا جزراً معزولة، بل خلايا في كائن أعظم، وأن كلّ وعي فردي هو صدى للوعي الأكبر الذي يُفكّر بنا جميعًا.

قد يبدو هذا التصوّر صوفيًا أو شاعريًا، لكنه يحمل دلالات عملية عميقة :

فإذا أدرك الإنسان أنه ليس منفصلاً عن العالم، سيتوقف عن استغلاله وتدميره.

وإذا شعر أن كل كائن حيّ هو تجلٍ للوعي نفسه، سيتعامل مع الوجود برحمة ودهشة واحترام.

إنها ليست فكرة عن الكون فحسب، بل طريقة جديدة للعيش فيه.

في النهاية، ربما يكون الوعي الكوني هو الوجه الآخر للوجود ، المرآة التي ينظر الله من خلالها إلى ذاته، والعقل الذي تحلم

به المجرّات، والنبض الذي يوحّد التراب بالروح، والنور بالظلّ، والإنسان بالكلّ.

خاتمة : أنا الكون الذي يعرف نفسه

يقول العالم **كارل ساغان** :

(نحن وسيلة الكون لمعرفة نفسه)

تلك الجملة تلخّص النظرية كلها في ومضة واحدة.

فالإنسان، في جوهره، ليس سوى أداة الإدراك الكبرى التي بها يعبر الوعي الكوني عن ذاته.

إننا، حين نفكر، لا نخلق الوعي، بل نُعيده إلى بيته الأصلي.

وحين نتأمل في سماء الليل، فالنجوم لا تلمع فحسب، بل تفكّر بنا.

في لحظات الصفاء العميق - في الصلاة، في الحب، في الفن، في الصمت - نشعر بشيء يوقظنا من داخلنا، كأننا نتذكّر أننا لم نكن أبدًا منفصلين، وأن هذا العالم ليس سجنًا، بل جسد الوعي الكوني نفسه، وأننا ذرات في فكره العظيم.

إنها لحظة الفهم التي فيها يهمس الكون للإنسان :

(أنت لست شيئاً في داخلي ... بل أنا الذي في داخلك)

وفي تلك اللحظة، لا يعود هناك أنا أو هو، بل فقط الوعي الواحد ،الحقيقة التي تنظر إلى ذاتها عبر عيونٍ لا تُحصى، وتسمع صوتها في نبض كلّ قلب حيّ.

حجر رشيد الكونيّ ..

محتوى الكتاب :

- بذرة تحت التراب ..
- العقل الكونـيّ ..
- عاصفة سيبرانية ..
- رحلة في الذاكرة ..
- على شفير الهاوية ..
- حجر رشيد الكوني ..
- سباق مع الزمن ..
- أرشيف الكون ..
- قاب قوسين أو أدنى ..
- كلمات الكون الأولى (مغارة علي بابا) ..